قصي الشيخ عسكر

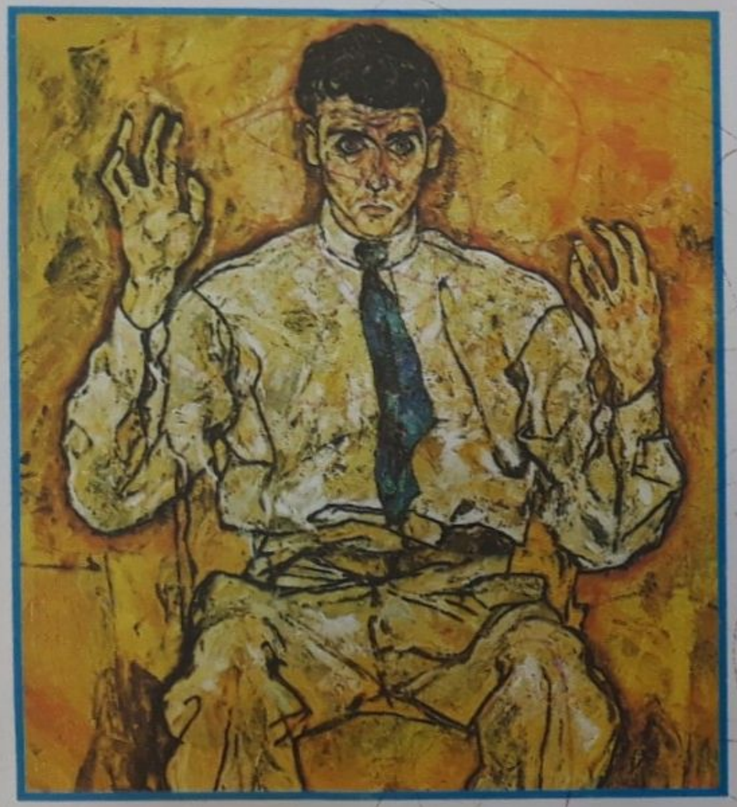

التجربة
النفق
الموتى يزحفون

ثلاث روايات علمية

دار الكنوز الأدبية

قصي الشيخ عسكر — التجربة — النفق — الموتى يزحفون

تصميم الغلاف

قصي الشيخ عسكر

التجربة
النفق
الموتى يزحفون

ثلاث روايات علمية

دار الكنوز الأدبية

قصي الشيخ عسكر

التجربة
النفق
الموتى يزحفون

ثلاث روايات علمية

دار الكنوز الأدبية

ثلاث روايات من الخيال العلمي

* النفق
الموتى يزحفون
التجربة
* قصي الشيخ عسكر
* الطبعة الأولى ١٩٩٥
* جميع الحقوق محفوظة
* دار الكنوز الأدبية - بيروت

النفق

رواية خيال علميّ

كان السيد "بيترسون" قد غادر عيادة طبيبه الخاص، وفي ذاكرته خيال خصب عن حياة جديدة سوف يعيشها بعيداً عن كل صخب وضجّة، أنا أعرف كلّ شيء، وأدرك كلّ الشروط، ما دمتُ اقتنعتُ بالفكرة!!

بتلك العبارة حدّث نفسه، وكانت ذاكرته تعود به الى الوراء قليلاً...

قبل سنتين بالضبط، هدّت جسده القويّ كآبة شديدة، ربّما فرضتها عليه مهنته، فهو مهندس ميكانيكي يتعامل مع الآلات الصّماء ، يعمل يومياً في احدى الورش من الساعة السابعة صباحاً الى الثالثة بعد الظهر، حياته تلك أملت عليه واقعاً من العزلة الرتيبة، وأحاطه الصخب طوال يومه بجفاف قاتل ، صخب في العمل، وصخب في الخارج مصدره الناس والسيّارات والقطارات.

كانت حياته جافّة لا احلام فيها . لم يعرف أيّ شيء عدا

الآلات والمكائن، لا طعم لشروق الشمس لديه،لا تلفت نظره الاشجار والورود، حتّى تصلّبت أعصابه، وخارت بمرور الايّام تحت وطأة الكآبة، فاضطرب عمله، و اختلّت قدراته، فاستقال من العمل، و فكرّ في ان يراجع عيادة للطبّ النّفسيّ، وقد التقى بداية الامر الطبيب المعروف البروفسور "توماس مان " واستمرّ معه الى الآن .

لجأ اوّل الامر الى الحبوب المهدّئة والمنوّمة، و انصرف نهاره كلّه الى الطبيعة . كان ينهض صباحاً، فيقصد، بعد ان يحتسي قهوته، أقرب حديقة، لكنّه كان يشعر انّ الصخّب يلفّه فيزيده كآبة وحزناً

وقد عرف الطبيب المرض، وشخّصه جيداً .المهندس السابق مصاب بكآبة شديدة، ربّما تتحّول الى حالة مستعصية تتطلّب علاجاً دائماً في المشفى لسنتين . انّه يريد ان يهرب من الحضارة والصخب المحيطين به. ان ينعزل عن الآلة تماماً...

تلك الآلة التي استهلكت اعصابه عشرين عاماً لم يعرف خلالها ايّ أحساس بالجمال !!

حتّى اندفع المريض مع اقتراح الطبيب وتطوّع لقبوله عن طيب خاطر...

كانت هناك مدينة منعزلةٌ تماماً...

وهي أوّل تجربة تقيمها مجموعة من العلماء والاطباء . هذه المدينة لا أثر للحضارة فيها، لأنها تعيش أجواء القرون الوسطى، مصابيحها تُنار بالزيت، وسائل النقل فيها عربات تجرّها الخيول، بيوتها قديمة، الحانات واماكن اللهو مصمّمة وفق طراز العصور الوسطى ... الملابس... العادات ...والاغرب من ذلك انّ الطيران المدني والعسكري منع من التحليق فوق اجوائها

ولكي ينعم سكان هذه المدينة بالراحة والأمان فقد مُنِعتْ عنهم كلّ الاشياء التي لها علاقة بالحضارة...

المذياع ممنوع..

التلفزيون ممنوع ....

التدخين ممنوع...

البندورة والبطاطا ممنوعتان باعتبار انّ اكتشافهما حدث بعد عصر النهضة....

التعامل بين المواطنين يتمّ بنقود قديمة...

ومع ذلك كانت هناك صعوبات ومشاكل على المواطن ان يتّحملها مادام قبل الهجرة عن طيب خاطر...

من هذه المصاعب اسلوب التدفئة، والادوية، الاطباء في المشفى المقام هناك عند أحد اطراف المدينة، لا يستخدمون في العمليات،

واصلاح الاسنان ايّ مخدّر، وعلى المريض ان يتحمّل الألم.... انّ على المواطن ان يكيّف نفسه لظروف تغيب فيها حضارةُ ما بعد النهضة الى زمن يسمّى القرن العشرين، وينسجم مع تلك الظروف بكل جوارحه، فهو لا يعيش خيالاً، بل واقعاً حقيقياً لا يرقى إليه الشكّ.

وعلى الرغم من كلّ تلك الصعوبات فقد وافق السيد " بيترسون " على تلك الشروط .

وجاء يوم الرحيل ...

استعدّ السيد بيترسون للرحيل على اتمّ صورة.. فاستقلّ احدى سيّارات الاجرة الى ضاحية بعيدة ، ومن هناك ركب عربة يجرّها حصانان الى سور المدينة المعزولة، وحين وصل الى البوابة، استقبله الحارس، وهو كهل في الاربعين من عمره ، ضخم الجثّة ذو تقاطيع صارمة، قاده الى مكتب عند المدخل ، فقابله الرجل المعنيّ باستقبال المواطنين . كان موظفاً رقيقاً في الخمسين من عمره . ناولة بدلة واردف :

- عليك يا سيد " بيترسون " ان ترتدي هذه البدلة " واشار الموظّف الى باب يقابل المنضدة " وبعد ان تتمّ ارتداء ملابسك تستطيع ان تصرّف نقودك في البنك .

وضع حافظته على المنضدة، وحين رجع الى الغرفة ثانية بدا

بشكل غريب؛ رداء، وسروال تزينهما نقوش من طراز زمن الفرسان، امّا الحذاء ذو الكعب الممسوح والمقدّمة الرفيعة كحلقة رمح فيبدو انّه من صنع يدويّ...

وقال الموظّف وهو يتمعّن في المواطن الجديد : الآن تستطيع ان تبدّل نقودك... وبدءاً من البّوابة، وموظّف الاستعلامات كان السيد "بيترسون" يغوص في العصور الوسطى...

لقد سلّمه الموظّف ، ورقة قديمة من البردي كتب عليها عنوان بيته، وطلب من الحوذي ان يوصله ... ثمّ انطلقت به العربة في شوارع المدينة... وكان كلّ شيء جميلاً وهادئاً لا تعكّر الضجّة صفوه... العربات تنطلق هادئة ، والناس يعبرون الشوارع وهم يرتدون ملابسهم واحذيتهم الغريبة، وكان هو يغوص مع الهدوء ، ويستسلم لخدر جديدٍ زرع في نفسه الحزينة البهجة والسرور...

هذه هي الدنيا التي كان من المفروض ان يعيشها قبل ثلاثين عاماً، لا اثر للصناعة والتصنّع في حياته الجديدة اطلاقاً .أخيراً انتبه الى نفسه كأنّه انتفض من كابوس مزعج دعاه الطبيب " كآبة " حادّة ، فلم تنفعه المهدّئات و لا الحبوب المنوّمة، كان يرغب في ان يهاجر الى الزمن، فقبل بالشروط، وهاهو الآن يقف امام الباب...

نعم يقف أمام الباب، وبيده مفتاح قديم...

تطلّع في المنزل من الخارج، فوجده بيتاً ذا حديقة واسعة

انتشرت فيها الورود بصورة عفوية، امّا المدخل فيفضي الى غرفة الضيافة، وصالون واسع، ثمّ حديقة خلفيّة، اقلّ مساحة من الحديقة الاولى...

وكان كلّ ما في البيت من الطراز القديم...

الكراسي، سرير النوم ، الاغطية، المقاعد والمنضدة في غرفة الضيافة، وكذلك الادوات في المطبخ...

في بيته كما هو الحال في هذه المدينة الزمن رجع الى الوراء أو تخلّص الساكنون من قهر الحضارة... نجا ركاب سفينة نوح من عذاب مدمّر، ولقي الآخرون حتفهم...

ولفتت نظره بعض الاوراق على المنضدة في صالة الاستقبال ووقع بصره على تعليمات فيها، فجلس يقرؤ بكلّ تمعّن..

قرأ من البداية.

كان الخطاب موجّهاً اليه.. البيت أصبح بيته والارشادات تشير اليه كيف يزرع الحديقة، ويستدلّ على أدوات المطبخ والتنظيف ، وخلال ثلاثة أيام من سكنه يستطيع الاتصال بمسؤول العمل لكي يعينه في التوظيف...

وكانت امامه فرص كثيرة..

العمل في معمل الشموع

زراعة الارض القريبة من داره

معمل الاحذية اليدوي

السكاكين والادوات الحادّة .

الماء

معمل النبيذ

الزيتون

واعمال غيرها كثيرة .

وفيما هو منهمك في قراءته اذ رفع بصره لخيال اعتقد انّه خَطَرَ من المنزل المجاور، فأبصر جارته تشذب بعض الورد البريّ في حديقة منزلها . تبيّن ملامحها جيداً . اذ لم تكن بعيدة عنه ، و فكرّ السيد " بيترسون" ان يستعين بها في فهم بعض الامور الجديدة عليه، و لم تكن هي لتجهل وجوده، فادارة السكن احاطتها علماً سلفاً بأنّ رجلاً في الاربعين من عمره سيكون جارها، لذلك استقبلته بابتسامة واسعة ودعته الى ان يتناول فنجان قهوة معها .

ولم تكن " فلّة" الجارة "نادين " لتختلف عن بيته، فكلّ مافيها من أثاث يخضع لشروط المدينة تلك، وقال السيد " بيترسون" و هو يرشف القهوة بهدوء :

- أظنّك تستطعين ان تشرحي لي كثيراً من الامور

فقالت و هي تتخذ مكانها قبالته حيث فصلتهما منضدة صغيرة استقرّ عليها فنجانا القهوة :

- ليست كلّها ، فسوف تكتشف بنفسك كثيراً من الامور لكنّي استطيع ان أشرح لك بعضها ..

فقاطعها متعجّلاً:

- اقصد نوع العمل واماكن التسلية .

- ذلك يسير، عنيّ انا، فأنا أشتغل في توزيع الحليب، ولاأعرف طبيعة العمل الذي ترغب فيه

- كنت مهندساً في ميكانيك السيّارات. فانتفضت تحذّره : عليك الا تتحدّث عن ايّ شيء يخصّ صناعة القرن العشرين . لا تنس نفسك، واعتبر انّك كنت في حلم أو راودتك بعض من صور الخيال العلمي .

هزّ السيد "بيترسون" رأسه ، وعقّب :

- اذن سأختار حرفة الزراعة...

ثمّ صمت فجأة، وبدأ يتأمل وجه مضيفته . كانت تبدو اصغر من سنّها، في حين بدا هو اكبر من سنّه، فراودته رغبة مفاجئة في ان يعرف ماذا كانت تعمل، وهمّ بالسؤال لولا انّه تذكرّ تحذيرها له...

وفي المساء خرج مع "نادين" الى اقرب حانة . كانت تبعد عن منزليهما حوالي كيلو مترين . فضّل الاثنان ان يمشيا حتّى يطلّع السيد "بيترسون" على شوارع المدينة ومنشآتها . كان كلّ مايراه ويلمسه يثير في نفسه الدهشة ، ثمّ الراحة ، شوارع المدينة، وبيوتها، و ملابس الناس ، تلك الدهشة أخرجته بصورة سريعة من توتره، وكآبته حتّى ظنّ نفسه في حلم فخشي ان يستفيق منه على واقعه السابق، لذلك لم يختر ايّ عمل يذكره بالماضي . رفض العمل في ايّ معمل وان كان من معامل العصور الوسطى ، تلك التي قرأ عنها في الورقة المعروضة عليه، وفضّل ان يندمج بالارض ، ويتّحد بالخضرة . سوف يعيش مع الارض، ولا يلتقي اصحابه الا مساءاً حين يزورونه في بيته او يأوي الى الحانة ليشرب قدحاً ما أو ينصت الى شيء من الموسيقى

وفي السابعة مساء وصل إلى الحانة...

كانت مربعاً مبلّطاً بالآجر ، يضمّ دكّة يقف خلفها البائع والنادل، وثمّة رفّ رتّبت عليه المشروبات،امّا الكراسي والمساطب، فكانت كلّها من خشب الحور، و لاتزيّن المناضد اية شراشف الا بعض رقع خصصت للمسح، وثمّة بعض الشموع، ومشاعل اربعة توزّعت على زوايا الغرفة...

انّها مهابة الماضي وبساطته ايضاً...

ومن منضدة أسفل مشعل مغروز بالزاوية القريبة من الدكّة، نهض رجل شبه مخمور، وهتف:

- تحيّة لصديقتنا بائعة الحليب...

ثمّ رفع رجل ملتح الة أوكرديون، فرددت الحانة مع اللحن، اغنية مطلعها :

البائعة الجميلة

نراها كلّ صباح

ومعها الحليب

لكنّها في المساء تأتي وحدها....

وحين توقّف المنشدون أشارت " نادين " باصبعها الى الجميع وبدأت تتحدّث بنغمة هادئة :

هذه المرّة لست وحدي ايّتها الصديقات والاصدقاء اذ أتيت هذا المساء ومعي صديقنا المواطن الجديد " بيترسون "

وصفق الزبائن ، ثمّ رفع ذو اللحية كأسه مشيراً الى القادم الجديد، فقلّده الجميع . السيد "نوقي" مدير الحرس والسيدة " كاميليا" العاملة في معمل " الخياطة "، وكان آخر من تقدّم عازف الكمان الذي عرّف نفسه بأنّه أقدم مواطن في المدينة...

ونهضت السيدة "نادين " وهي ترفع يد عازف الاوكرديون .

الليلة نحتفل ايّها الاعزاء بمرور عام على قدوم اوّل مستوطن...

رفعوا كؤوسهم واذ صمت الجميع، نطق عازف الأوكرديون :

كنت أعيش الوهم ايّها السادة.. اتصوّر خيالاتٍ بعيدة حيث قفز ذهني الى زمن غريب اسميته القرن العشرين تصوّرت فيه صوراً غريبة تختلف عن عصرنا الحالي . كنتم انتم مثلي تتخيّلون هذا الكابوس لكنّي استفقت قبلكم،فرجعت الى الواقع وأقررت به... ثمّ جئتم من بعدي، وها نحن نحتفل اليوم بذكرى تحرّرنا من الكابوس البغيض... كابوس الوهم...

استمرت الحفلة الى منتصف الليل، بعدها ، استقلّ " بيترسون" و " كاترين " عربة الى منزليهما، وفي المنزل مارس المواطن الجديد حياته البعيدة عن الحضارة..أشعل مصباح الزيت، ثمّ توجّه الى الموقد وسط الغرفة، فدسّ فيه خشبة عجز عن اشعالها بسهولة ، وسرعان ما استلقى على فراشه، وبدأ يغطّ بنوم عميق...

نوم لا قلق فيه ولا كآبة...

لكنّه ...

ما ان بدأ يشخر حتّى دخل في حلم غريب...

رأى مسخاً غريب الشكل يحوم حوله خلال سيره في أحد شوارع المدينة . رفع رأسه الى الأعلى، فتبيّن شكل الطائر جيداً ... كان نصفه من معدنٍ على شكل طائرة، والنصف الآخر طير

عاديّ... حام حوله، ثمّ انقض عليه، فركض نحو منزله،و دلف بالغلط في منزل "نادين" احتضنته بقوة عند الباب، غير انّ ملامح الحلم ضاعت منه قبل النهاية، فاستمرّ في نومه مرّة أخرى....

وكانت هناك احلام اخرى لم يتذكرها بعد .

- ٢ -

بمرور الايام انسجم االسيد " بيترسون" مع حياته الجديدة ...

كان يذهب الى الحقل القريب من منزله يزرع البطاطا واللفت والجزر، ويعتني بشجر التفّاح الموجود في البستان قبل مجيئه. يعمل بحيويّة ونشاط فأنسته الارض، والخضرة الماضي كلّه، فلم يعد يفكرّ به...

تلك اللحظة كان يقف على حافة بستانه قرب الساقية فيمتدّ بصره مع أوراق البطاطا واللفت الى طرف البستان الآخر حيث سياج مقبرة المدينة المحاذية للبستان من جهة الشمال الى طرف المدينة الغربيّ، ومثلما عرف طرق المدينة وشوارعها، ومراكزها الحيويّة، عرف المقبرة.. انّها شيدت مع المدينة، ولمّا يسكنها أحدٌ بعد، فالموت هذا الزائر البغيض، لم يخطر بباله ان يبدأ عمله بعد... وسوف يسجّل تاريخ المدينة اسم اوّل من يموت، كما ايضاً اسم اوّل مولود فيها من الجيل الجديد...

وسأل السيد " بيترسون " نفسه : نحن جيل عاش حياتين متناقضتين جزء منها في القرن العشرين..وجزء منها هنا في عصر سبق عصر النهضة، امّا الجيل الجديد، فلن يحمل هذا التناقض العجيب..

عضّ شفته كأنّه يحلم بطفل يملأ عليه سعادته، هل اصارحها؟ نعم عليّ ان اصارحها.. إنيّ أعرف انّ نادين لن ترفض .

كانت اقرب انسان من النساء اليه، يهمّه ان يتابع أخبارها، كأنّ شيئا ما شدّه اليها، ولولا ادراكه التام بأن السؤال عن الماضي لمجرّد الفضول فقط ممنوع وفق قوانين المدينة لحدّثها عن ماضيه وسألها عن شغلها وحياتها قبل ان تصبح مواطنة، لا يدري لِمَ يفكرّ بها كثيراً، ثمّ ان تفكيره بها ينمو مع ازدهار محصوله اذ أينعت بذور الباقلاء، وازدهر محصول اللفت، ونضج التفّاح...

امّا الشخص الآخر فهو عازف الأوكرديون الذي احترف مهنة العزف في الحان ليلاً، وخلال النهار على الارصفة ، و في الساحة العامّة. كان قانعاً بحياته، منصرفاً الى موسيقاه، شاعراً ينظم القصائد القصيرة، ويغنّيها، ليتناقلها الناس...

كان سعيداً بحياته...

قانعاً بها، وهي أقرب الى حياة التشرّد...

وقد شعر السيد " بيترسون " انّ صديقه عازف الكمان يخفي

شيئاً ما . هناك قلق لا تستطيع سعادته الغامرة ان تمسحه عن وجهه، وكلاهما، العازف وبيترسون، يتوجسان امراً مبهماً لكنّهما يجهلان كنّهه ولايدركان مغزاه..

ربمّا يكون قلق " بيترسون " نابعاً من احساسه الخفيّ بالراحة عندما تكون نادين قربه، ليسمّ ذلك حبّاً او اعجاباً سوى ان ما يلفت نظره هو انّها لا تطيل الجلوس قربه لا في منزلها أو في منزله بل في الحانة ايضاً، دائماً تستأذن لقضاء حاجة ثم تعود... وفي اوّل يوم دعته الى الحانة بدأت تستأذنه في الذهاب الى دورة المياه او مكان ما ثمّ ترجع وعلى شفتيها ابتسامة عريضة مثلما يفعل الطفل المذنب بالضبط

لكنّ "بيترسون " اكتشف انّ الناس في هذه المدينة ثلاثة اصناف :

صنف سعيد لا يشوب سعادته أيّ كدر

وآخرون سعداء يتصرّفون تصرّفات غريبة مثل نادين

ونوع ثالث سعداء، وقلقون...

خلال تلك الافكار المتضاربة خطرتْ له فكرة ما . عليه ان يتقدّم خطوة أخرى . انّه متأكد من عاطفته تجاه " نادين " ، فقرّر ان يغتنم فرصة احتفاله بقطف المحصول، ومرور سنة واحدة على حيازته لحقّ المواطنة ليفاتحها بالموضوع .

وقبل حلول يوم الاحتفال بأسبوع تقريباً زاره صديقه عازف الأوكرديون....

جاء اليه الى الحقل..

وكأنّ الزيارة كشفت للاثنين بعض ما غمض عنهما. راقب العازف تفاّحة تسقط، فتوقّف عن العزف ، وسأل صديقه بيترسون :

- ماذا تنوي ان تفعل بمحصول التفّاح؟

- هذا ما نويتُ ان أتحدث معك بشأنه.

علّق الفأس بتنوء قرب الجذع ، وجلس جنب صديقه، ثمّ عقّب

-إنّي افضّل ان استشير نادين بالامر؟

قطب العازف حاجبيه، وربّما غطّت الدهشة سعادته، فكشفت عن بعض قلقه، فنسي نفسه ليسأل بدهشة :

- لماذا ؟ هل هي شريكة لك ؟

تهلّلت أساريره متجاهلاً استغراب صاحبه :

- لا، بل أريد ان يكون الموضوع مدخلاً لطلب يدها .

صمت العازف طويلاً، وكان يمسح عن آلته بعض الغبار:

- هل تبادلك الشعور ذاته؟

هزّ بيترسون راسه، وقال:

- لقد حدثت بيننا أشياء يمكن ان تحدث بين ايّ اثنين يشدّهما الاعجاب لبعضهما...

- غير انيّ استغرب من شيء اقرب الى الهاجس .

فحدّق مقاطعاً :

- هل لاحظتّ أمراً غريباً ؟

- أبداً ، ياصديقي العزيز، انّه يمكن ان يكون مجرّد هواجس أو خيالات لا أساس لها من الواقع .

فانتفض " بيترسون " زاعقاً بصوت خافت :

- من تعني ؟

- اهدأ أولاً، وعليك ان تعلم أنيّ حين أفضي بما في نفسي فلأنّك اقرب اصدقائي اليّ... انّك رجل تتعامل مع الطبيعة، وتحبّ الفن، حاول ان تصغي اليّ ولا تقاطعني، ثمّ انيّ قد لا اعني اطلاقاً حين أضع علامة استفهام حول رجل او امرأة انهما يرتبطان برباط عاطفي او جنسيّ .

هدأ " بيترسون " وهو يسمع الجملة الاخيرة، وسأل :

- من هو الرجل الآخر ؟

ومن دون تردد أجاب :

- صاحب الحانة

كان صاحب الحانة صديق الجميع ، يبتسم لكلّ الزبائن، ولا يؤثر أحداً على سواه شأن ايّ بائع يحافظ على مصلحته، امّا تاريخه الشخصي كما عرفه بيترسون فإنّه جاء الى هنا قبل سنة ونصف تقريباً، ففضّل ان يفتتح حانة في الشارع الرئيس،

كانت نادين من روّاد الحانة، وفي مدينة صغيرة من مدن العصور الوسطى، كهذه ، تُبنى اشاعات حول العلاقة الخاصة بين رجل وامرأة . فافترض الناس في البدء افتراءات مختلفة، ثمّ ارتدت الاشاعات مدحورة، ففسّر المجتمع العلاقة - بعدئذ - نحو توجيه آخر هو انّ الاثنين يشتركان في مصلحة تجاريّة واحدة لا يرغبان في الاعلان عنها .

الامور تبدو متشابكة لمن يراقبها عن كثب...

والخواطر لا تصل الى حلّ..

وانتفض " بيترسون " بغير انفعال:

- انّ الذي يحيّرني نوع العلاقة ان لم تكن عاطفيّة ...

فقابله صديقه بصمتٍ مطبق!!

وقبل ان ينصرف العازف اسرّ لصديقه بكلمة قد تكون هي

مفتاح السرّ، انّ صاحب الحانة وعد نادين ان يمرّ بها بعد ان يغلق حانته . سمعه اليوم عندما كان في الطريق لكي يبتاع بعض الحليب، مرّ في المنعطف المحاذي للشارع القريب حيث يقفان من دون ان يشعرا به، فسمع النادل يلمّح لنادين عن زيارته لها بعد ان ينهي عمله . انتظر العازف قليلاً عند الاستدارة، ثمّ ظهر من مفرق الطرق أمامها، واخذ يعزف على آلته، كأنّه لم يسمع ايّ حرف...

في المساء دعا " بيترسون " نادين الى الحانة، تعمّد ان يقبّلها مرّة، وثانية امام صاحب الحانة، وهي تستقبل قبلاته بخدين مضرّجين بالحمرة، وغنى عازف الأوكرديون تلك الليلة اغنيته الشهيرة:

انا القمر العاشق

ايتها الوردة الجميلة

ذات الخدّين المضرّجتين بالحمرة.

كيف أصل اليك

والذئاب التي تنام بعين واحدة

تطلق على العشاق عوائها كالبنادق!!

عندئذ توقّف التصفيق، وتهامس السكاري، صاحت امرأة نصف سكرى، شارفت على العقد الخامس من عمرها: انّها غلطة

يجب ان تحاسب عليها . قال مخمور : دعيه انّه يتحدّث عن خيال علمي، وسأل مخمور شلّ السكر نصف شفتيه : ما معنى بنادق ؟ ما معنى هذه الكلمة فارتفعت اصوات : خيال علمي... شعر حديث لا معنى له... فلاحت الحيرة على وجه العازف الذي أدرك أنه نسي نفسه فزجّ في قصيدته بكلمة يرجع تاريخها الى عصر متقدّم، لكنّ نادين تداركت الموقف، ونهضت رافعة قبعّتها البيضاء الجميلة، فخيّم صمتٌ مطبقٌ على الوجوه، ثمّ هتفت بنغمة شاعريّة :

تطلق على العشاق سهام عوائها كالسهام

فيشربها بهائي ...

ارتسم الحبور على الوجوه من جديد، فعاد العازف الى اغنيته، وعاود الرواد انشادهم، واذ توقّف العزف، تطلّع "بيترسون" بوجه صديقته، وهمس :

- اليوم اكتشفت انّك شاعرة عظيمة .

- اتحب الشعر ؟

كلّ هذا السلوك : القبل الهمسات، وانا أحبّ الشعر، همسَ لها، وتطلّع بطرفِ عين الى صاحب الحانة، فلم يلحظ عليه ايّ انفعال، وكان بيترسون " يفضّل ان يطرح موضوع الزواج معها في الحقل، فكرّ طويلا، فوجد انّ المحصول وتسويقه يمكن ان يكونا

مدخلاً جميلاً لعرض الفكرة، لكنّ زيارة عازف الاوكرديون اليوم للحقل غيرّت توجّهاته وحثّته الى ان يتعجّل الموضوع قدر الامكان!

والآن يدخل الشعر عرضاً:

- مادمت احبّ الشعر فذلك هو السبب الذي دفعني الى ان افضّل الحديث معك هذه الليلة على انفراد .

- الآن ؟

- نعم، اتفضلين عندي ام عندك ؟

ردّ ت بكلّ بساطة :

- في منزلي ان شئت .

- حتى وان طالت السهرة ؟

قالت بكلّ هدوء :

- لا مانع لديّ

في الساعة الثانية عشرة غادرا الحانة . استقلا عربة الى منزل نادين . خلال الطريق حاول " بيترسون " ان يبدي رقّة في تعامله معها كي يمّهد لموضوعه . كانت تقابل رقته بدلال من ترغب وتصدّ، وربمّا منعها الحياء بصفتها انثى من ان تقابل جرأته بتصرف مماثل ، وحين انفردا في البيت بدأ يحدّثها عن عواطفه، و لو لم

يُمنع من ذكر ايّامه السابقة - قبل حيازته حقّ المواطنة - لقال انّه عاش حياة جافّة لا حرارة فيها ، ثلاثين عاماً قضاها بين الآلة واجزائها الباردة الصمّاء، حتّى عرف الحبّ معها للمرّة الاولى .

اخيراً، سألها، بعد ان تحرّر من احلامه السابقة :

- هل توافقين على ان تتزوّجيني .

كأن السؤال فاجأها، فتحوّلت نظراتها الى عينيه، وقبل ان تجيب سمعا طرقاتٍ على الباب، نهضت غير مرتبكة، وهي تعتذر:

- انّه صاحب الحانة . نسيت ان أخبرك أنه وعدني ان يمرّ ومعه بعض السلع التي أنا بأمس الحاجة اليها .

- هل يجلس طويلاً ؟

- كلا كلا ، فهو متعبٌ من العمل...

غابت ، ثمّ عادت وعلى شفتيها ابتسامة واسعة ظهرت من خلالها سعادتها، استلقت على كرسيّ مقابل،ثمّ ردّت :

- دعني افكرّ

- ارجو الا يطول بك التفكير...

- هذه الليلة، وغداً الى الظهر، سأزورك في الحقل بعد الظهر حين أعود من العمل لكي أخبرك برأيي النهائي...

في اليوم التالي كان ينتظرها بلهفة...

على انّه شعر بارتياح تام لحديثه معها الليلة البارحة، هاهي لا تخفي عنه ايّ شيء . زيارة صاحب الحان لها، وموعدها المتفّق عليه معه صباح أمس... كلّ هذه الامور ذكرتها له، ولم يبد على ملامحها ايّ افتعال . كانت صادقة، وصريحة، مسحت صراحتها ايّة فكرة متوحشة خطرت عنها بذهنه . المهمّ انّها غير مرتبطة عاطفياً مع أحد غيره ...

ومجرّد التفكير بالوقت للاجابة بـ (نعم) او "لا" تعني الموافقة المبدئية. غداً بعد الظهر، أسمع منك كلمة انتظرتها اكثر من عام ، ومع صمته، وهو مستلقٍ على الفراش، أبحر فكره مع أوّل اغنية سمعها عن نادين يوم زارا الحانة قبل عام :

انا القمر العاشق
ايتها الوردة الجميلة

وقد جاءت ذات القبعة البيضاء الى الحقل بعد الظهر ... أبدت اعجابها بالمحصول . أثنت على عمله كثيراً ، ووصفته بأنّه يعادل مجهود عشرة مزارعين، فقاطع كلمتها الاخيره بقوله : لو كنت معي لتضاعف العدد . كانت تستظلّ بشجرة تفاّح حين قطفت اثنين من الثمار قضمت واحدة، وقدّمت الاخرى له، فسألها وهو يلوك :

- لذيذ اليس كذلك ؟

- ما الذي تنوي ان تفعله ؟

فكرت ان أبيعه الى معمل " المرتى" انها مجرّد فكرة...

- لدي اقتراح ... لِمَ لا تتعاقد مع صاحب الحانة، فلديه معمل لصنع النبيذ، وسوف تحصل على ربح اكثر ممّا يدفع لك معمل المرتى ؟!

- فكرة لا بأس بها ... لكنّي اعتبر مجرّد تدخّلك في شؤون عملي وايراده موافقة ضمنيّة على الزواج ...

فقرصت اذنه ...وقالت:

- لو كنت ذكيّاً جّداً لعرفت موافقتي منذ ان اعطيتك التفاّحة ...

ففتح ذراعيه ليحتضنها، لكنّها ارتدّت الى الخلف ثمّ قفزت الى الساقية، وصاحت :

- لا اتزوّجك إلاّ اذا وافقت على كلّ شروطي

وهمّ بأن يعبر اليها، فهددته بالذهاب...

توقّف عند الجرف، واستند بيده الى شجرة صفصاف، فسأل:

- ماهي شروطك؟

- الا تتدخّل في شؤوني الخاصة!!

- هذا شرط واحدٌ وليست شروطاً!!

- بل هو كلّ الشروط.

فصاح يصرخ حتّى خيّل اليه انّه يسمع الصدى من جهة المقبرة الفارغة:

- اوافق...

- اذن الحقني ان استطعت...

وأطلقت لساقيها العنان، فقفز الى الجرف الآخر، ثمّ ركض خلفها، وسرعان مالحق بها... ثمّ احتضن كلّ منهما الآخر وهما يلهثان...

- ٣ -

بعد الزواج مباشرة أصبح السيد "بيترسون" أمام الأمر الواقع.. لم تكن الصدمة تلك لتحدث له بسبب وضعه النفسيّ او انتقاله الى سكن جديد . انّ غاية ما قام به الزوجان من تغيير هو انّهما هدما السياج الفاصل بين المنزلين ، وعدّلا بعض الشيء في المشتملات، ثمّ رتّبا الاثاث بصيغة أخرى تناسب وضعهما الجديد...

كذلك لم تحدث الصدمة نتيجة لكون السيد " بيترسون " عاش خلال القرن العشرين اعزب، وقضى عاماً في العصر الوسيط وحده، بعد ذلك فاجأه الزواج ليقلب معادلاته النفسيّة ...

لا هذا ، ولا ذاك له دخل ... لا التغيير المكاني ، ولا العامل النفسي . انّ ماحدث يمكن ارجاعه الى ظروف خارجة عن ارادة السيد " بيترسون " نفسه .

غير انّ نادين فاجأته بالامر منذ اوّل يوم لزواجهما، وممّا خفف

من وقع الصدمة عليه كون العلاقة اخذت طابعاً تجارياً بحتاً لا علاقة له بالعواطف ...

فلعله يتنازل عن كلّ الأمور.

لعلّه يتراجع عن بعض المبادىء.

عدا ذات القبعّة البيضاء نادين التي منحها قلبه بعد عصر طويل من الجفاف...

وهاهو يستعيد ذكرى اوّل لقاء معها، يوم دخلا الحانة، وطالت الجلسة، فاعتذرت، وهي نشوى، عدّة مرات لتذهب الى دورة المياه...

ثمّ عرف - بصورة مفاجئة - كلّ شيء تقريباً ...

حدث ذلك في ليلة الزفاف، فانكشف له بعض السرّ الخفيّ .

كانت ترقد جنبه حين قالت له انّه أصبح زوجها، وعليها ان تصارحه بالامر الواقع، وذكرّته ثانيةً انّ هناك من ذاب فيها حبّاً لكنها خمّنت بفطرتها أنّ الاخر أو الآخرين لا يقدرون على حفظ السرّ، امّا هو فقد حدّثها عنه قلبها بحديث آخر، فأحبته، وكان صعباً عليها ان تصارحه بالحقيقة قبل ان يقترن بها .

ومدّت يدها الى شيء، اتضح كهنه فيما بعد، فأدرك لِمَ غابت عنه فترات ليلة اللقاء في الحانة، فاعتدل في جلسته، والذعر أو

الدهشة يعقدان لسانه.

أهو في حلم ام خيال؟

والواقع يقول انّ نادين أصبحت زوجته، فلا تستطيع ان تخفي عنه ايّة خصوصيّة من خصوصياتها...

ظلّ يراقبها ، وهي تتلذّذ بدخان سيجارتها. كان كمن أبحر في حلم غريب، وهو يدري انّه يحلم، ولا يحبّ ان يستيقظ، لو طردت من المدينة لعاش وحده ، ولو قبل بها لرضخ للحضارة التي هرب منها، و استهلكت أعصابه مدّة ثلاثين عاماً...

قال برنّة يأس كأنه يعاتبها :

- لِمَ لمْ تخبريني من قبل؟

- لقد فعلتُ ذلك...

- كان كلامك غامضاً ...

فردّت بحزم:

- كنا في موقفين لا ثالث لهما " في هذه اللحظة ضغطت يدها على كفه " ان تتوقع اسوأ الاحتمالات، وألا ادخل في تفاصيل الموضوع، وكلّ مافعلته هو انيّ طلبت منك عدم الاعتراض ، فوافقت.

- ولِمَ غامرت اذن، وكنت تعرفين انّك مقدمة على مغامرة قد

تخفق؟

- لأنيّ أحبّك . نعم انا أحبّك!!

انّها تحبّه، رغم قسوتها الظاهرة . قالت له قبل قليل انّ هناك من احبّها ولم تتوسّم فيه كتمان السرّ ، قد يكون المعنيّ صديقه عازف الأوكرديون، لكنّ صوتها قطع عليه تأملاته البعيدة :

- لم يكن في نيتي ان أخدعك.

فمال نحوها يتغلّب على صمت أشبه بطقوس جنائزيّة :

- لست أفهم لحدّ الآن كيف ترفضين الحضارة وتقبلينها بوقت واحد؟

تناولت سجارة اخرى وقالت :

- لا تنزعج لأنيّ مفرطة ...

قال بشيء من الحدّة :

- الحضارة والقديم اصبحا يمثلان بالنسبة لي الشيطان وآدم امّا ان اتبع ذاك او اسير في ركاب هذا " وازدادت نبرة صوته الى درجة اليأس " امّا المزج....

- اسمع عزيزي الصغير " ربتت على شعره وواصلت" انتَ تسأل اذا كنتَ هربت من القرن العشرين ، فكيف أقبل بظواهره ، فمن الافضل ان اظلّ فيه؟ اليس هذا هو السؤال الذي يدور

ذات يوم رات الالة تقضم اباها فيتحوّل بين انيابها المسنّنة الى اشلاء . ابصرت المشهد ماثلاً امامها، وانتبهت الى امّها، فإذا هي مشلولة تماماً... لم تتحمّل الصدمة، فخالطت لوثة عقلها، ثمّ استقرّ بها المقام في احدى المصحّات العقليّة .

امّا الاميرة الصغيرة ، فقد تبنتها احدى الراهبات، والحقتها بمدرسة الدير حيث عاشت الوحدة والهدوء، ومارست التأمل مبتعدة عن الصخب والضوضاء .

مع ذلك لم تخل حياتها في الدير من منغّصات... تعلّمت التدخين سّراً، وقامت بتمرد مع إحدى التلميذات، وحين انكشف امرها طردت من الدير..

فعادت الى المدينة ثانية...

لكنّها كرهت نصف الاشياء، و أحبّت نصفها الآخر فظلّت تعاني الى ان قرأت عن موضوع الهجرة، والمدينة القديمه، فهاجرت مع من هاجروا اليها، وفي هذه المدينة أحبّبت وتزوّجت!!

كانت تحدّثه عن حياة الاميرة باعتبار القصّة حدثت في المستقبل البعيد، فظلّ منسجماً مع الاسطورة الى آخر لحظة ، كأنها وقعت في زمن قادم بعيد، ثمّ ارتدّت الى الحاضر خلال فترة صمت التقطتها نادين، فاندفع يبحث عن نفق للخروج من الصمت القصير:

- كم تكون الاسطورة جميلةً اذا كانت واقعاً..

فأجابت متأسّفة :

- لكنّ الواقع اذا كان اسطورة ..

ولم تكمل عبارتها، فقد انتبها الى طرقات على الباب تقطع عليهما خلوتهما، ثمّ تبيّنا صوت صاحب الحانة الذي قدم ليتحدّث مع السيد " بيترسون " حول ثمار التفّاح من أجل ان ينقلها الى معلمه!!

- ٤ -

كانت الايّام تمرّ وفق تلك الصيغة غير المملة...

السيد بيترسون يعمل كلّ يوم في حقله، ونادين تبيع الحليب، يعودان بعدها الى منزلهما فيتحدّثان أو يخرجان الى الحانة...

حياة بسيطة لا تعقيد فيها...

لا ضوضاء . لا صخب، ولا زيف على الاقلّ من جانب السيد " بيترسون ". لا شكّ انّه استاء جدّاً من افراط زوجته في التدخين ومشاركتها في عمليّة تهريب أحد أطرافها صاحب الحانة ، لكنّه لم يكن ليرغب بمعرفة التفاصيل، كفاه انّه يحبّها، وهي تهيم به . لا ينكر انّ وجود منتوجات معاصرة تتسرّب من خارج الزمن الى مدينته يُعكرّ صفو هذا الحاضر الرائع، وبإمكانه ان يخبر سلطة المدينة ، فيفقد زوجته، أخيراً قرّر صرف النظر عن الحقيقة ، لأنّ وجود بعض السلع من زمن غريب يجب الا يهدم حياته الزوجيّة ...

حتّى حدث ما لم يكن في الحسبان . ليس مفاجأة طبعاً ، ولكنّه تحصيل حاصل لسرّ خفي لا بدّ ان تكشفه الايّام ذات يوم...

الخبر الجديد يتلخّص في الآتي :

بينما السيد " بيترسون " واقف وسط حقله، يقلّب التراب ، ليستقبل فصل زراعة جديد اذ استدعته شرطة المدينة الى دائرة التحقيق حيث وجد زوجته بانتظاره...

وتناقل الناس انباء الفضيحة بالتفصيل... وخلال ساعات عقدت الوقائع الجديدة ألسن المواطنين..

المفاجأة تلخّصت في انّ أهل القرن العشرين الذين يعيشون في عقول المواطنين واحلامهم بصفتهم خيالاً، اكتشفوا حيلة اخترعها بعض اهل القرون الوسطى . الانباء تحدّثت عن صاحب الحانة ، ومعمله المخصص لصنع النبيذ ، وتهريب بعض السلع من الداخل والخارج بهدف التجارة. المصنع يقع بالقرب من سور الزمن الفاصل بين الحضارتين القديمة والجديدة ، والسور عال وعريض، وضع مصممو الاسلاك ، وكسر الزجاج اعلاه، فلا يستطيع ايّ متسلّل ان يجتازه....

ومثلما يستطيع الفرد ان يبحر عبر الزمن الى الماضي أو الحاضر، وهو جالس مكانه، استطاع صاحب الحانة ان يكسر حاجز الزمن،

بطريقة مذهلة...

لم تمنعه الاحتياطات السابقة، فقد تمكن من ان يحفر نفقاً ضيقاً من معمله المجاور للسور الى خارج المدينة، ليتسلل منه فيبيع لأهل القرن العشرين منتوجات لم تصنعها الآلة، فهم مفتونون بكل ماهو مصنوع باليد، ويستورد منهم ما يحتاج اليه بعض مواطنيه...

ربّما حدث الكشف مصادفة...يُقالُ انّ مزارعاً من أهل ذلك الزمان البعيد، أراد ان يحفر بئراً في مزرعته، فاستوقفه بعد ان حفر عدّة امتار النفق، وظنّت السلطاتُ انّ امّة غابرة حفرته،فتتبعّه المعنيون بشؤون الآثار، حتّى انتهى بهم الى مدينة القرون الوسطى !!

مساكين نحن أهل الحاضر ، قال أهل القرن العشرين . لك ايّها الماضي الف وجه ووجه ، ولأيّامك الف خبر و خبر، كيف نستطيع ان نتجنّب أحابيلك، فنحن ضحاياك، وما حياتنا المعقّدة إلاّ بسبب تلوّنك !!

اهتزّ الناس في كلا الجانبين: العصر الوسيط، والعشرين، ولعلّ أهل القرن العشرين لم يبالوا بالخبر كثيراً لأنّهم أقرّوه حقيقة واقعة لا يستطيعون قهرها، امّا أهل العصور الوسطى فقد اهتزّوا بصورة تفوق الحدّ....

السلطات تكتشف شبكة للتهريب يقودها صاحب الحانة...

نادين بائعة الحليب طرف فعّال...

الاعترافات تتوالى، وعدد المساهمين في العملية من كلا الطرفين : المهرّبين والمستهلكين يصل الى نسبة العشر من مجموع السكان...

في اليوم نفسه وقفت نادين تدافع عن زوجها " بيترسون " لكنّ أحداً لم يصدّقها . قالت انّها تتحمّل وحدها المسؤوليّة . تحدّثت بلهجة عاطفيّة حادّة ، ونغمة قطعها البكاء مراراً، ولم ينكر زوجها امام المحكمة علمه بالامر . اعترف انّه على علم ببعض المعلومات . يعرف زوجته مفرطة في التدخين، وربّما رآها تقرأ بعض المجلاّت الواردة من عالم القرن العشرين، أو تحدّثت معه عن تغييرات سياسيّة في عالم ذلك الزمن . كان من حقّه ان يعدّ هذه المعلومات ضرباً من الخيال العلمي الذي امتازت زوجته به، وكانت جملته الأخيرة كافية لتجعل بعض المحققين ينفجرون ضاحكين على الرغم من الجدّيّة وسيماء الغضب التي علت وجوههم .

تواصلت جلسات المحكمة طوال النهار، وفي المساء صدر القرار بالنصّ التالي :

يُعاقب الذين عاشوا الزمن القادم ومارسوه عبر هلوستهم والشعوذة: فحاولوا تلويث اجوائنا بما انتجته هلوستهم من مواد ضارة، يعاقبون بالطرد خارج حدود المدينة الزمنية وتصادر املاكهم واموالهم، ويُمنعون من الرجوع مرة اخرى!!

-5-

قبل الرحيل هز المدينة خبر جديد
عازف الأوركديون مات!!
وجده المارة متيبسا على الرصيف أمام الساحة العامة وسط المدينة.
ليلتها كان كالنورس يعزف.ويغني طول الليل إلى أن مات.كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها ، يقال إنه عاش هواجسه وخوفه، لعله توقع شيئا غير طبيعي. كان ذا إحساس مرهف يعبر عنه بالموسيقى والشعر، وحين سرت الفضيحة ، حمل آلته وبقي جالسا أمام الساحة يغني ، ويعيد الأغنية نفسها:

نادين
من كان يظن أن للقمر
وجها مظلما
أو تكون ملهمة الشعراء
قاسية القلب إلى حد بعيد

وعند الساحة احتشد ثلاثمائة شخص خضعوا لقانون الطرد، وفي المكان تجمع أيضا بعض المواطنين ممن جاءوا محتجين أو معلنين غضبهم على الخونة... لكن قرار الطرد تأخر قليلا ، والعلة حالة الوفاة وماتبعها من إجراءات.
المتوفى عازف الأوركديون أوصى أن يدفن صديقه السيد " بيترسون" جثته..
نعم كان كتب الوصية منذ استفاقت في صدره الهواجس ولفحته الشكوك ، كأنه يعلم أنه سيكون أول ميت يدفن في مقبرة المدينة...
غادر السيد " بيترسون" الساحة العامة مخلفا الضجة وراءه، واستقل عربة باتجاه المقبرة وحده، فالسلطات المحلية أصرت على عدم ذهاب زوجته نادين معه لأن الوصية لم تنص على حضورها بالاسم عندئذ تنفس " بيترسون" الصعداء . إنه يغار – حتى من الموتى – على زوجته التي ضحى بمدينة كاملة أنعمت عليه بالهدوء من أجلها. إن خبرا إلى السلطة من قبله كان يمكن أن ينقذه قبل أن تكشف سلطات القرن العشرين عملية التهريب الكبيرة ، وتلك هي – بمفهومه - صفات فرسان القرون الوسطى ألا يتنازلوا عن مبادئهم وإن كانت تخالف القوانين .
لقد أعطى وعدا لزوجته قبل الزواج وبقي محافظا على وعده فجاء التزامه على حساب مستقبله، سوف يقر صاغرا بقبول القرن العشرين، ورجوعه إليه على الرغم من أنه ينتمي إلى القرون الوسطى قرون الشرف والبطولة الفردية.
نادين إنك تستحقين أن أترك قرونا بكاملها من أجلك، وها أنا أضع وردة بيضاء فوق قبر الرجل الذي شجعني على الاقتران بك " ثم هز راسه أمام القبر وتمتم " لم تكن تحبها مثلما احببتها ولو كانت تعلم أنك تحفظ السر لتزوجتك قبل أن أراها!
بهذه العبارة ختم صلاته الصامتة أمام قبر صديقه الفنان وعاد بالعربة إلى الساحة العامة ، ومن هناك غادر إلى السور حيث ارتديا عند بوابة الحدود ملابس عصرية ثم استقلا عربة إلى عصرنا الحالي!
وخلال انطلاق العربة ، ضغطت نادين على يده وقالت بابتسامة تشع من عينيها مرارة وحبورا:
هل افاجئك إذا قلت لك إني حامل؟
فغر فاه مغالبا دهشة اعترته وهمس في أذنها:
حبلت به في القرون الوسطى وستلدينه في القرن العشرين!
فقالت بابتسامة تلاشت منها المرارة:
لن تواجه الصخب وحدك!
فقال بوله:
أجل لن أكون وحدي بعد الآن!
ثم انطلقت بهما العربة إلى مشارف القرن العشرين!

الموتى يزحفون

رواية خيال علميّ

- ١ -

كانت غرفة الضيوف الواسعة في منزل البروفيسور (بدوان) تستقبل خمسين عالماً مختصّاًمن العلماء الذين يحمل كلّ منهم شهادة دكتوراه ولقب بروفيسور. لقد راحوا بكلّ لهفة وشوق يتطلّعون الى الكلمة القيمة التي سيلقيها، أو يذيعها فيهم زميلهم الاستاذ القدير البروفيسور (بدوان) رئيس قسم الآليّة الذاتيّة والميكانيك في مركز الابحاث السورنياي. انّه وعدهم قبل يومين بمفاجأة سارّة. قال لهم حين حضر الاجتماع المعتاد في مركز الدراسات والابحاث : ايّها الاصدقاء انّي ادعوكم الى منزلي لتناول طعام العشاء . انتم تعرفون جيّداً انّي افضّل ان ادعو اصدقائي الى العشاء في اغلب الاحيان لأنني أعلم علم اليقين انّ السّهر والحديث المتشعّب سيكون اكثر اثارة بعد الغروب.

وأضاف البروفسور الشهير المستر (بدوان) : سوف ترون ايّها الاصدقاء مفاجأة سارّة تأخذ بعقولكم.

الواقع انّ كلمات البروفسور (بدوان) سرت الحاضرين، اذ

تلهّفوا جميعهم لمعرفة المفاجأة، ليس بسبب غموضها بل كونهم يعرفون زميلهم الدكتور (بدوان) من خلال عملهم معه ، فهو رجل يخلب الالباب بسلوكه القويم وروحه المرحه، اللذين لم يمنعانه أو يحولا دون جدّيته في العمل طوال خدّمته التي استمرت اكثر من عشرين عاماً قدّم خلالها اربعين بحثاً في مختلف النشاطات والحقول.

نهض المضيف ايّ الدكتور (بدوان) من مكانه، فصمت الضيوف منتظرين قوله. لاصوت ولا همس في الافق ولا نأمة، ماعدا تكات عقرب. الثواني الصادرة من ساعة الحائط الاثريةالكبيرة التي كانت تشير الى الخامسة والنصف.

وبدأ البروفسور (بدوان) يتحدّث بصوته الرخيم وعبارته الفخمة الرزينة،حيث راح يتحدث بهيبة ووقار :

ايّها الاصدقاء الزملاء ، وعدتكم ان اقدّم لكم مفاجأة سارّة .اجل أنا عند وعدي لكم . الآن أبدأ تلك المفاجأة .

صمت لحظة ثمّ التقط جهازاً صغيراً بحجم علبة الكبريت. ضغط على زرّ صغير مثبّت عند الزاوية اليمنى من الجهاز .

- بروفسور بدوان يتحدّث معك، هل أعددت العشاء ؟

أجاب الجهاز بنغمة هي نفسها نغمة البروفسور:

- نعم ياسيّدي .

- تستطيع ان تأتي الآن ، فترتّب المائدة ثمّ تجلب العشاء .

- انا على استعداد تامّ ايّها البروفسور .

والتفت البروفسور الى زملائه وعقّب:

- سيأتي خادمي يرتّب المائدة ، فهل انتم على استعداد لقبول المفاجأة ؟

بعد لحظات رأى الضيوف باب الغرفة - غرفة الاستقبال - يفتح تدريجيّاً . ظلّت اعين الحاضرين تتطلّع نحو المقبض، وهم يتساءلون: ما الذي يعنيه البروفسور القدير بكلمته تلك...

فجأة .. هب القوم مذعورين. صرخ بعضهم، وصدرت همسة عن أحدهم، اذ لم يكن القادم انساناً طبيعيّاً... كان هيكلاً عظمياً، يدفع باقتدار وكفاءة عاليين عربة صغيرة اصطف عليها عمودان لقاعدة تضمّ صحونَ الاكل، وعلى زاوية من المنصّة العلى ملاعق رُتّبت داخل اسطونات من معدن، ثمّ في الخانة السفلى للعربة وضعت كاسات الشراب وقنانٍ مختلفة...

كل تلك المشاهد غابت تلك اللحظة عن نظرات الحاضرين لانّ الدهشة استهلكتهم خلال اللحظات الاولى من دخول الهيكل العظمي ، فها هم امام جسدٍ لايكسوه اللحم... كتلةٌ من العظام تمشي على الارض بمحجرين وتدفع امامها عربة، هذا كلّ ما في الامر... وهذه هي المفاجأة !!

لو لم يكونوا علماء مشهورين، لكان يمكن ان يقال: كاد يغمى على أحدهم. ولابأس من القول من انّ المفاجأة شلّت السنة ثلاثة او اربعة منهم، لولا ان سمعوا قهقة تصدر عن البروفسور بدوان مضيفهم نفسه، فأدركوا انّهم يواجهون اختراعاً جديداً ابتكره المضيّف ، فسكنت أنفسهم الحائرة ، وهدؤا، وعلى وعلى شفاههم الف سؤال وسؤال، وفي نفوسهم رغبة عارمة عن استطلاع الابتكار الجديد، ومعرفة وظيفته ودوره المرسوم له من قبل البروفسور بدوان

بعد أن رتّب الهيكل العظمي الصحون والأطباق، ولصق بكلّ كأس قطعة صغيرة تشير إلى اسم الضيف ليعرف الضيوف أماكنهم، وقف وسأل باحترام:

- أمِنْ خدمة أخرى ياسيّدي ؟

- انتظر قليلاً ...

تقدّم البروفسور من الهيكل ، وبدأ يشرح لضيوفه بعضاً من رموز اختراعه الجديد . قال: لقد زرعت جهازاً دقيقاً داخل قحف الجمجمةقريباً من المحجر الأيمن ، وهو الذي يسيّر الهيكل كلّه ويصدر اليه الاوامر وفق رغبتي بغض النظر عن الزمان والمكان.

وازدرد البروفيسور ريقه، ثمّ واصل : كنت افكرّ ايّها الاصدقاء باختراع يختصر كثيراً من الامور، وقبل ان أجيب على ايّ سؤال

من اسئلتكم اودّ ان ابيّن سبب اختراعي هنا لتتطّلعوا على نواياي وتناقشوني كما تعوّد ايّ منا نحن العلماء على مناقشته اصدقائه في العمل حين يسعفه الحظ والجدّ بالاهتداء الى شيء جديد .

انتم تعرفون - ايها الاصدقاء - انيّ كنت افكّر خلال العشرين سنة الماضية بشيء يوفّر كثيراً من الجهد والمال، فاهتديت الى هذا الاختراع الذي سيوفّر على المجتمع كثيراً من الجهد والمال والوقت . تصوّروا - ايّها الاصدقاء - كم ستكون سعادة النساء والرجال حين يذهبون الى اعمالهم، وعندما يرجعون يجدون الهيكل قام بواجبه على اكمل وجه: نظّف البيت، غسل الملابس ، طبخ الطعام، ولم ينسى الملح، او يضع كمّيّة زائدة من البهارات أو التوابل مع الطبخة حيث تفسدها مثلما تفعل غالباً ربّات البيوت، ثمّ انّه اكثر قدرة من ايّ انسان طبيعي على مراقبة البيت، إذ من المستحيل ان يغفل بعد مغادرته الغرفة عن أن يطفيء النور، ومن المستحيل ان ينسى حين ينتهي من الطبخ ان يغلق زر الطباخ الغازي. انّه يتجاوز تلك الامور نحو الافضل ، ثمّ حين نستثني كلّ تلك الاعمال نجده يوّفر علينا الجهد والمال، فهو يستطيع قيادة السيّارة بدقّة متناهية، كذلك الطائرة والباخرة. ويمكننا الاستفادة منه في الحرب ، فبدلاً من ان نزجّ بالاحياء نستطيع ان ندفعه ليقاتل عدونا بالنيابة عنّا، وبغض النظر عن المزايا السالفة فانّ الهيكل العظمي المبرمج لايتطلّب منّا ان نوفّر له مكاناً واسعاً لاستيعابه،

ولايقتضي منا مصروفاً ،وليس هو بحاجة الى طعام كالحيوان، أو بترول كالآلة ، ولا يخلّف نفايات تلّوث البيئة .

ونظراً، ايّها الزملاءالعلماء، لتلك المؤهلات السابقة فإنّي اسألكم ان تؤيّدوني في نشر هذا الاختراع، وهاانتم ترونه بأعينكم حقيقة واقعة لاشكّ فيها، ومن أجل هذا دعوتكم، لأعرف وجهة نظر كلّ منكم...

توقّف عن الكلام، ثمّ استدار الى الهيكل وخاطبه:

- الآن يا سيّد هيكل تستطيع ان تجلب الطعام...

دفع الهيكل العربة وخطى الى الخارج في حين عاد البروفسور الى التحدّث مع ضيوفه ثانية:

- الآن جاء دور الاسئلة وانا على اتمّ الاستعداد للاجابة عليها.

بدأ الضيوف النقاش، وخلال فترة الاخذ والردّ كان الهيكل العظميّ يدخل ويضع الطعام المتنوّع على المائدة فتتعلّق الابصار به بكلّ اعجاب وتقدير.

سأل اصغر الحاضرين سّناً اذ لايزيد عمره عن الخمسين عاماً وهو كيماويّ قدير يدعى البروفيسور (تورمي).

- أهو هيكل حقيقي أمْ مصنوع من العاج او ايّة مادّة أخرى؟

هزّ البروفيسور (بدوان) رأسه بالايجاب:

- نعم هو هيكل حقيقيّ لرجل مات بالسكتة القلبيّة.

ارتفع صوت العالم القدير (تشانيك)

- لو تفضّلتم وأخبرتمونا بقصّة صاحبه!!

اجاب البروفيسور بدوان بنغمته الفخمة:

- ايّها الزميل العزيز. ايّها الزملاء الاعزاء، يستطيع ان يجيبكم الزميل الدكتور (هارمن) فهو الذي ساعدني منذ البداية في الحصول على الهيكل، وهو . بلا شك . يعرف قصّته عندما كان حيّاً أفضل مني.

ومن زاوية قريبة لطرف غرفة الضيافة الشمالي نهض طبيب طويل القامة ابيض الشعر في السبعين من عمره راح يتحدّث عن الهيكل المذكور :

- ايّها الاصدقاء - قبل عشر سنوات اتصّل بي صديقي الدكتور (بدوان) وطلب منّي ان كان بامكاني ان اوّفر له هيكلاً عظميّاً . كان هناك في المشفى مريض كتب على نفسه تعهّداً بالتبرع بكلّ اعضائه. كان المريض يعاني من مرض القلب بينما كانت اعضاؤه الباقية سليمة، ولكوني ادرك تماماً مدى حاجة المرض للأعضاء السليمة، فقد استأصلت كلّ اعضائه واحشائه حسب وصّيته، بالنتيجة لم يبق منه إلاّ هيكله العظميّ الذي يعّد ايضاً حسب الوصّية جزءاً من الاعضاء أو بعبارة ادق يُعّد حين ننظر

اليه من زاوية كليّة، عضواً من تلك الاعضاء لذلك لم امانع قطّ في ان امنح زميلي البروفيسور بدوان تصريحاً استثنائياً في ان يحوز ذلك الهيكل ليجري تجاربه عليه .

بعد تلك الكلمة انجلى الغموض للحاضرين، وبدأت فترة الأسئلة والنقاش من قبل الحاضرين.

وجّه البروفيسور بال السؤال التالي:

– يعني انّ التجربة بصدد الموضوع نفسه تمتدّ جذورها الى عشر سنوات.

– اجل.. قال البروفسور بدوان وأضاف:

– اكثر من خمسين تجربة اخفقت ثمّ نجحت أخيراً .

– سيدي البروفيسور، العشاء حاضر....

– حسناً تستطيع ان تغادر الى المطبخ!!

انصرف الهيكل من غرفة الضيوف، وصوت السيد بدوان مفعمٌ بالفرحة وهو يرحّب بضيوفه:

– الدجاج ، اللحم المشوي، الحساء اللذيذ، السلطة، كلّها طبخها الهيكل الذكي، تفضّلوا لتتأكدوا بانفسكم.....

توجّه الضيوف الى مقاعدهم جنب المائدة، وكانت المفاجأة الغريبة تشغلهم عن الطعام على الرغم من انّ الساعة كانت تشير

الى السادسة مساءاً ، وهو الوقت المناسب الذي اعتادوا فيه على تناول عشائهم.

الحقيقة انّهم مازالوا منبهرين. لم يستفيقوا من الصّدمة بعد . لقد تحدّثوا كثيراً . استمر نقاشهم من الخامسة والنصف، والأن الساعة تقترب من السابعة والنصف. انّ ظاهرة الهيكل شغلتهم عن كلّ شيء حتّى عن الطعام نفسه والزمن!!

وكان بينهم شخص واحدٌ ظلّ طوال الوقت صامتاً بدءاً من دخول الهيكل المفاجيء الى اللحظة الراهنة، لكنّه قرّر أخيراً ان يتحدّث ، فيطغى صوته على كلّ الاصوات....

كان ذلك المتحدّث هو البروفيسور كموران استاذ الصناعات الحربيّة في دولة لموردان، وممّا يذكر عنه انّه ساهم بصنع ثلاثة مدافع الكترونية صغيرة، وقدّم عدداً من المشاريع المهمّة في المجال الحربيّ والبحث العلميّ.

قال: اسمحوا لي ان ألفت نظركم ايّها الاصدقاء الى نقطة ذات أهمية تتعلّق باختراع صديقي البروفيسور بدوان أنّي (وكان يقف تلك اللحظة ليراه الحاضرون) أنّي استميح صديقي عذراً في أن يبقى اختراعه سراً الآن، ومن الحكمة أن تسألوني لماذا عندئذ يسعدني أن أدخل في التفاصيل بصراحة تامة....

ازدرد جرعة من الماء بلّ بها ريقه وواصل:

– انتم تعلمون أننا دخلنا حرباً مع جارتنا الكبيرة دولة مومنتوس. لقد لازمنا سوءالحظّ لقلّة نفوسنا، فهم بحدود الخمسين مليوناً ونحن خمسة ملايين. بعض أراضينا مازالت محتلة، لذا فاءنّي افكرّ باستخدام الاختراع الهائل، والهجوم عليهم، والحاق الهزيمة بهم من دون ان نفقد ايّ مخلوق منّا .

كانت تلك هي المفاجأة الثانية . اكبر الحاضرون سرعة بديهيّة البروفيسور كموران و وطنيّته العالية. ان سكان كوكب دالمينوس يعرفون درجة تطوّر دولة لموردان وحجم ذلك التطوّر، وليست هزائمها السابقة او هزيمتها الاخيرة في الحربين العظميين إلّا بسبب قلة سكانها . لقد تساوت دولة لموردان مع الدول المتقدّمة بالاختراعات وحقول العلوم المختلفة، وخسرت الحرب بسبب العنصر البشريّ . في تلك اللحظة جاء اقتراح البروفيسور مناسباً وفي محلّه.

نستطيع ايها الاصدقاء ان نغذّي الهيكل بجهاز صغير يعتمد على ارتداد الموجة خلال الاصطدام بالاسلحة والذخيرة فيحدد الهيكل الهدف لينقضّ عليه من الجوّ أو عبر الارض، سيكون عندنا هياكل تحمل القنابل، وأخرى تهبط بالمظّلات ، وهياكل توجّه المدفعيّة، وهناك ايضاً تشنّ هجوماً برّيّاً . سيفتح الناس في دولة مومنتوس عيونهم فجر أحد الايّام ليروا هياكل عظميّة تحمل السلاح والمعدات، وهي تنقضّ عليهم، وستكون المفاجأة مذهلة

حين يطلقون النار على هيكل عظميّ فيظلّ يواصل مسيره من دون ان يبالي بأيّ شيء.

كان البروفيسور كموران يتحدّث بحماس معهود، فسحر الحاضرين بحديثه، فقرّروا قبل ان يبدؤا اختراعهم لخدمة الاغراض المدنيّة ان يجرّبوه بدولة مومنتوس التي هزمتهم وأهانتهم مرتين.

كانوا يتحدّثون عن فكرة الحرب في اثناء تناولهم الطعام حيث نسي كلّ منهم ان يثني على مهارة الهيكل العظمي في الطبخ كما يفعل الضيوف عادة مع مضيفيهم. انّ اقتراح البروفيسور كموران منطقيّ الى أبعد الحدود، ولِمَ لا . سوف لن نقاتل نحن، هناك هياكل لا تحسّ ، ولا تشعر ، هياكل يحركها الالكترون المزروع داخل جماجمها هي التي تخوض الحرب نيابة عنّا، فلن نفقد ايّ شيء على الاطلاق .

لكنّ اختراع البروفيسور تعترضه عقبتان في حال تنفيذه حربيّاً، ذلك ما اثاره الدكتور كورشال وهو عالم فيزياء في السبعين من عمره: لكي نسخّر اقتراح زميلي للحرب ،علينا ان نجمع بحدود خمسة ملايين من الهياكل العظميّة ....

هنا انتبه الحاضرون الى صعوبة المسألة ، كيف يتسّنى جمع خمسة ملايين هيكل غير تالف . انّ صناعة هياكل من الحديد او العاج تكون مكلفة ثقيلة الحركة غير خفيفة كالعظام بالاضافة الى

انّها غير مرنة الاستعمال، ودولة لموردان على وشك نصر كبير، لكنّها تواجه عقبة الهياكل ، فكيف يحصلون عليها من دون ان يثيروا ضجّة تلفت النظر.

ظهر اقتراح ثالث من مسؤول بشؤون الفضاء الدكتور راكور: ايّها الزملاء الاعزاء : اننا نستطيع ان نجمع خمس العدد من مقابرنا . تذكّروا اننا يمكن ان نجمع مليون هيكل عظميّ، وعلينا ان ندبّر الباقي اي الاربعة الاخماس الباقية من الخارج

صمت الجميع لحظة سمعت خلالها أصوات المضغ، وطقطقة الملاعق. وهي تمسّ الصحون، وسأل الدكتور لايول كيف يمكن ان ندبّر اربعة ملايين هيكل . اننا لا يمكن ان نفعل شيئاً ما لم نضع بالتعاون مع الدولة خطّة محكمة الاخراج، وخلال اقلّ من عشر دقائق جاء الاقتراح من السيد سافول مسؤول التنسيق بين الفروع حين نبّه الاخرين الى الدول الفقيرة...

أجل هناك دول فقيرة كثيرة نستطيع ان نتعامل معها سّراً تحت ايّ سبب كان ، وبأية حجّة نراها مناسبة ...

ولم تكن كلّ الدول في كوكب دالمينوس بمستوى واحد . بعض تلك الدول غنيّة جدّاً وبعضها فقير الى درجة العدم، هناك شعوب لا يقرأ سكانها ولايكتبون، فيرى السائح على هذا الكوكب مشاهد غريبة حين يطوف به... يبصر دولاً وشعوباً

عبرت الفضاء والنجوم الى الكواكب البعيدة، ثمّ تصطدمه حقيقة مرّة، وذلك حين يرى بعض الشعوب الجاهلة غير المتعلّمة أو الفقيرة التي يضطرّ بعض افرادها الى ان يبيعون كلاهم وبعض اعضائهم ليعيشوا . في دولة متخلّفة من دول هذا الكوكب تدعى هدوران باع أحد الفقراء احدى كليتيه مقابل مبلغ بسيط من المال، وقد اضطرّت امرأة ان تبيع احدى عينيها لتحصل على مبلغ زهيد...

حول مثل هذا البلد كانت لجنة العلماء تتكلّم...

لقد طرأ تغيير طفيف على المشروع . سوف لن يقدم البروفيسور مشروعه بصيغته المدنيّة أيْ ان الهياكل لن تنزل الى البيوت لتخدم او تقود السيارات، بل ستستخدم باديء ذي بدء في ضرب العدو وابادته بعد ذلك توظّف لراحة سكان لموردان.

كان العلماء المجتمعين حذرين في حديثهم. انّهم كما يتوقّعون على ابواب نصر جديد. اتفقوا على الا يخبروا أحداً إلا ملك البلاد ليضمنوا دعمه لهم. منذ غد ينتقل الهيكل الى مقرّ البحوث، ويوضع في احد الاماكن المحروسة، ثمّ يُدعى الملك الى المركز ليطلّع على الاختراع الجديد، وهناك بحضوره تناقش اللجنة مسألة الهياكل المطلوبة...

كان الملك رجلاً يحبّ العلم والعلماء وقد لبّى دعوتهم وعقد معهم اكثر من لقاء . رأى بعينيه التجربة الجديدة . أنصت الى

الاقوال، وأعار السيد كموران أذنا صاغية، وفي الاجتماع الأخير للبتّ بالموضوع، وهو الاجتماع الخامس اتفق المتحاورون على ايجاد صيغة أخرى. انهّم سيكتفون بمليون هيكل طبيعي فقط يحاولون حيازتها بصورة سرّية، فاستيراد اربعة ملايين هيكل عمليّةٌ ربّما تلفت النظر ... وحين خفّت حدة النقاش ، سأل الملك:

- ماهي كفاءة الهيكل الصناعيّ؟

سابقاً ناقش العلماء مسألة المواد التي يمكن ان يُصنع منها الهيكل. الحديد ثقيل .. والخشب ايضاً أثقل من العظام. العاجُ غالٍ . لم يبق إلاّ النحّاس وبعض الاخشاب، وعندما تباشر المصانع عملها تنتج خلال ستة أشهر الكميّة المطلوبة .

وأجاب العالم المختصّ بالتصنيع الآلي : انّ الهياكل المصنّعة تعادل من حيث الكفاءة تسعين بالمائة من كفاءة الهياكل الطبيعيّة. ردّ السيد كموران هذا شيء جيد، إن نسبة تسعين بالمائة قريبة من الكمال

أخيراً اتفق الحاضرون على التصنيع . اكتفوا بحيازة مليون هيكل من المقابر الوطنية أو الاستيراد إذا تمّ ذلك بشكل سرّي. أمّا المقابر فقد اعلن عن وجود آثار في بعض منها، واضطرت السلطات بعد ذلك الى تسييجها ومنع الناس من زيارتها لحين الانتهاء من المهمّة المطلوبة ...

كان العمل يجري على قدم وساق اذ توفّر مليون هيكل طبيعي جاهز للاستعمال ، وانتجت المعامل خلال الستة الاشهر الماضية الكميّة الباقية من الهياكل ، ولولا خوف الملك نفسه من افتضاح السرّ واثارة الشكوك لفضّل ان يشتري من الدول الفقيرة هياكل موتاها على ان يحمّل خزينة الدولة عبئاً اضافيّاً ، وجهداً هم في غنى عنه.

غير انّ الحلم بالنصر خفف عن الملك ولجنة العلماء كلّ شعور بالهمّ والغم . سوف يدفع خصمهم العنيد كلّ التكاليف، وبعد الحرب المصيريّة يستطيعون ان يستخدموا الهياكل المتبقيّة في تسيير العجلة الصناعيّة للبلد حيث تناط بها مهمّة قيادة السيّارات والقطارات وبعض المعامل....

اذن كلّ شيء جاهز....

والهياكل مستعدة لتنفيذ المهمّة المناطة بها على اكمل وجه!!

- ٢ -

في الساعة صفر حسب التوقيت المحلّي لدولة لموردان حدث شيء غريب اقضّ مضاجع النيام بدولة مومنتوس. استفاق النّاس على شيء مرعب ظنوّه كابوساً أوّل الامر ثمّ واجهوه في الواقع ولم يدركوا حقيقته الغريبة بعد....

وقفوا أمام الحدث الغريب مصدّقين ومكذّبين . كانت السماء تمطر حممها عليهم . ملايين الهياكل العظميّة تهبط من السماء، تقتل الناس من دون ان تفرّق بين شيخ وطفل أو عسكريّ ومدني . طائرات تقودها هياكل عظميّة تحوّل المدينة الى كتلة من نار . كانت الابنية تتهاوى والعمارات العالية تتداعى . تحوّل ليل المدينة الى نهار ، وهدؤها الى دويّ وصخب و أكثر ما أحرج الناس وأربكهم تلك الهياكل . التي بثّت الرعب في نفوس الأهالي حين كانت تهبط بالمظّلات لتطلّق النار بلا انقطاع .

لقد ظنّ الناس انّ السّماء بعثت هذه الهياكل . انّه غضب لا يقدرون على دفعه، والأولى بهم ان يتركوا بيوتهم الى الشوارع

يلتمسون الامان هناك .

وفي لحظات هروبهم ... في لحظات المحنّة فكّروا بأخطائهم السابقة، وسخريتهم من القدر... بل ندموا على سلوكهم السابق ، لِمَ أنكروا كلّ شيء، وطغوا واستكبروا بعد أن انتصروا على سكان كوكبهم في حربين متتاليتين خلال أقل من نصف قرن!!

وهذه هي خطاياهم تحاصرهم... وهم الآن يهربون من منازلهم خشية من ان تتهاوى على رؤوسهم الى الحدائق والشوارع...

ولم تكن الشوارع بأفضل من البيوت ، فالهياكل كانت تصوب فوّهات الاسلحة نحوهم بحقد وانتقام، والموت هو هو ... سواء في المنزل أو في ايّ مكان آخر...

امّا الجنود فكانوا بحال يُرثى لها . وجدوا أنفسهم أمام هياكل عظميّة تزحف عليهم من الارض ، أو تهبط عند مواضعهم، ثمّ تبدأ بفتح النار عليهم، لا تتراجع ولا يؤثر فيها الرصاص ، فظنّوا أنفسهم أمام قوى روحيّة زحفت عليهم للانتقام....

بلحظات قليلة أثّر شكل الهياكل وهي تطلق النار في نفسيّة الجنود المومنتوسيين اكثر ممّا يؤثره ايّ سلاح فتاك . كيف ستصبح حال أيّ عسكريّ يرى نفسه وجها لوجه امامَ هيكل عظميّ مدجج بالسلاح يطلق عليه النار ؟!

الكثيرون ماتوا بسبب الخوف والرّعب . كانت الصدّمة أقوى

بكثير من اعصابهم . آخرون ماتوا قتلاً ، في حين فضّل الكثيرون ان يلقوا باسلحتهم، فلا يقاوموا غضب السماء الذي بدا أكبر من قدراتهم. وفضّلوا ان يقعوا أسرى بأيدي الجيش الغامض، مع ذلك استمرت الهياكل العظميّة زاحفة الى المواضع . ظلّت تطلق النار غير آبهةٍ بمن يقاوم أو يستسلم . المومنتوسيون عوملوا معاملة واحدة، سواء من يلقي السلاح أو من يقبع في حصنه منتظراً رحمة الهياكل...

وخلال دقائق وساعات غصّت الخنادق بالموتى ، وانتشرت الجثث في المواضع والمعسكرات... المأساة الحقيقيّة التي عاشها الجنود حينئذ هي انّهم في اللحظات الأولى لمواجهة الهياكل ظنّوا انفسهم يحلمون، ثمّ تأكدوا من انّهم يعيشون واقعاً لا حلماً. اضطروا الى ان يفتحوا النّار، في تلك اللحظات الحرجة تحطّمت القوى العسكريّة الفعالة لدولة مومنتوس الجنود قتلوا أو سقط بعضهم في الاسر وانتقلوا الى بلاد الاعداء.

لكننا لا يمكن ان نقول انّ حالة الاهالي كانت افضل من حالة الجنود . كلّ الناس مدنيين وعسكريين واجهوا بالحيرة غضب السماء بما فيهم حكومة دولة مومنتوس

وفي ظرف ستّ ساعات من الساعة صفر الى السادسة صباحاً حققت الضربة العنيفة أهدافها بشكل دقيق . كلّ شيء انتهى وفق رغبة دولة لموردان ويبدو أن الضربة العنيفة، انتهت ومازالت هناك

أصوات وهياكل تجوب الشوارع والخنادق... كأنّ الهياكل ترغب في تحطيم المزيد من الناس والمنشآت.

كانت لجنة العلماء تراقب الهياكل من على شاشات التلفاز الكومبيوتر وهي تتجوّل بأسلحتها في المدينة المحطمّة، وعلى وجوههم ترتسم ابتسامة غريبة . هكذا كنّا في الحربين الأولى والثانية والآن لا شيء في دولة مومنتوس يمكن ان يقال عنه انّه يعمل بانتظام : المعامل المدنيّة... المصانع العسكرية ، الشوارع، خطوط النقل ... المحطّات الصناعية.. خزانات الماء، وأشياء يصعب حصرها أو عدّها ... زاد المنظر رعباً انّ العمارات انقضّت على السكان فتناثرت على الشوارع وبين الصخور والحديد المحطّم جثث الناس والقطط والكلاب، امّا الهياكل فما زالت تسير أو تقتحم البيوت لتقتل كلّ من تجده حيّاً...

ظلّ الرعب يخيّم على البقية الباقية من سكان دولة مومنتوس حتّى حين خفّت حدّة النار. لانّهم ايسوا تماماً من معرفة ايّ خبر فوري. لقد تعطّلت خطوط الهواتف، ومحطات الاذاعة ، فلا شيء يستطيعون عبره ان يفهموا سرّ المحنة الجديدة، بل توغّل بعضهم في التشاؤم بانتظار الموت القريب العاجل!!

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم نفسه اعلنت دولة لموردان انّها كسبت الحرب، واذاعت تصريحاً حذّرت فيه الخصم من التمادي في العناد، اذ هناك اكثر من عشرين مليون هيكل هم على

أتمّ الاستعداد للغزو(طبعاً كان هذا البيان كاذباً فنحن أهل الارض نعلم انّ دولة لموردان كانت تحتفظ بحوالي ستمائة الف هيكل طبيعيّ)!!

وبعد أقلّ من دقائق أعلنت دولة مومنتوس موافقتها غير المقيّدة على الشروط...

هذا كلّ ما حدث بعد ذلك... كسب الموردانيون الحرب بالهياكل، وجعلوا أعداءهم يرضخون لشروطهم، أمّا المومنتوسيون فقد فقدوا معاملهم ومصانعهم المدنية والحربيّة ، وخسروا جيشهم كلّه ، صاروا اضعف بكثير من ايّة دولة ضعيفة، وارقّ حالاً من ايّة دولة فقيرة على كوكب دالمينوس، حتّى الدول التي تتعرض للمجاعات والأوبئة أصبحت ترثي لحالهم.

في الطرف الآخر اي دولة لموردان احتفى الملك والشعب بالعلماء وخصّوا العالمين بدوان وكموران بكثير من المكافآت والتقدير . تلك هي المرّة الأولى التي يحققون فيها انتصاراً على عدوّ تقليديّ كبير بفضل اختراع بدوان ونصيحة كموران، فالشعب والحكومة بل العلماء أنفسهم لم يتوقّعوا مثل ذلك النّصر السريع قطّ، ثمّ انّ الحرب الجديدة نفّذتها أدوات صناعيّة تمّت مراقبتها من أجهزة خاصّة ، ولم يدخل في العمليّة العسكريّة ايّ عنصر بشريّ عدا العقول التي كانت تراقب اجهزة التحكّم!!

وحين انتهت الحرب القصيرة والعظيمة بالوقت نفسه. وجدت حكومة دولة لموردان انّ ما بقي من الهياكل أكثر ممّا توقّعوه. اذ لم يتحطّم منها في الحرب الاّ المئات، أي أنهم يملكون أكثر من ثلاثة ملايين هيكل، سوف تخدم بلادهم، وتوفّر الراحة للسكان .

وخلال ايّام عرضت الدولة هياكلها للبيع على السكان بسعر زهيد ، فاقتنى كلّ بيت تقريباً هيكلاً يقوم بعمل المنزل من غسل للصحون، وتنظيف وترتيب للاثاث، وهناك هياكل اشترتها المؤسسات ، وجعلتها تقود السيارات والقطارات او تنظّف الشوارع العامّة وتساهم في الاعمال الشاقة

هكذا أصبحت دولة لموردان تعتمد في تسيير شؤونها وكثير من مؤسساتها على الآلة الجديدة، فارتاح السكان من أعباء كثيرة شكلت حجر عثرة في طريق مسيرتهم العلميّة الاجتماعيّة في السابق - اي قبل الاختراع العجيب - .

كانت النساء يخرجن الى اعمالهن، ويطلبن من الهيكل ان يرتّب كلّ شيء، ويجهّز المائدة قبل ان يصلن الى منازلهن مرهقات بعشر دقائق فقط، وكان الهيكل العظمي يجري في البيوت اعمالاً عديدة : يجلس جنب معلم الحساب ويساعده في تصحيح دفاتر الطلاب ، او يروح يردّد مع طالب المدرسة دروسه الى ان يحفظها بإتقان ... وحينما يخرج الناس الى أعمالهم صباحاً ، والطلاب الى مدارسهم، يطالعهم وجه سائق القطار، أو الشاحنة ، فيلاطفونه

بهذه العبارة:

- صباح الخير بروفيسور بدوان

وكان هو يردّ عليهم :

- صباح الخير ايّها الاولاد المشاكسون....

- ٣ -

لكنْ...

لابدّ ان يحدث شيء ما بعد ذلك التطوّر الهائل.... لابدّ أنْ يهبّ اعصارٌ غريب فيقتلعُ الهدوء الذي خيّم على كوكب دالمينوس فترة قصيرة، أصبحت خلالها دولة لموردان سيدة المخلوقات هناك ...تأمر وتنهي، تفعل ما تشاء وترفض ما لا ترغب فيه.....

فقبل أيام زارت سيدة في الخمسين من عمرها البروفيسور بدوان. كان على وجه المرأة كدمات ، كأنّها تعرّضت لضرب مبرّح، فوق الجبين جرح، وعند الخدّ الايمن بقعة حمراء، وحول محجر العين اليمنى هالة زرقاء...

انفردت المرأة بالبروفيسور،وراحت تروي له تفاصيل الحادث المروّع ، وانفاسها تكاد تنخلع من الرعب:

حين عادت الى بيتها توقّعت ان يكون الهيكل ادى دوره على

أحسن ما يُرام... فهي متعبة وجائعة، وكلّ احتمالها أنها ستجد الراحة في البيت . المائدة مرتّبة، والطعام ساخن ، فهي - شأنها كلّ مرّة - تسند كلّ تلك الامور وبعض الاعمال المنزليّة الى الهيكل عبر جهاز التحكمّ الآلي.

فجأة وقع بصرها على منظر غريب... منظر لا يتوقّعه العقل. رأت الازبال تغطي ارضيّة البيت . الأواني مهشّمة، والطعام يحترق . توقعت ان يكون هناك خطأ في البرمجة، وحين تمعّنت بآلة التسجيل ولوح الكومبيوتر الصّغير وجدتهما على مايرام....

كيف حدث الغلط؟تساؤلت بدهشة،وضغطت باصبعها على الزرّ ثانية، ثمّ أمرت الهيكل بتنفيذ دوره:

- هيا أعد الامور الى مجاريها!

لكنْ وقع مالم يخطر في البال . انّه امرٌ فظيع لا يتصوره العقل، واكبر من قدراتنا على التصديق....

وقف الهيكل كأنه يفكر ...هزّ رأسه كالانسان الحيّ، وفتح فمه يعبرّ عن سخطه بابتسامة خبيثة...كان يسخر من صاحبة المنزل ويرفض أمرها... ثمّ تقدّم نحوها... وهي تضغط على زرّ الطواريء،وزرّ اطاعة الأوامر... ولا فائدة ترجى من ايّة ردّة فعل....

خطوة...اثنتين، ثلاث...أصبح أمامها الهيكل وجهاً لوجه، رفع

يده اليمنى بحركة سريعة وهوى بها على صدغها... صفعها عدة صفعات فأضطرّت الى التراجع. افلتت منه... وهربت خارج المنزل...

توجهت الى أقرب تلفون في الشارع واتصلت بالبروفيسور، وهاهي الآن تحكي له كلّ شيء، وتروي التفاصيل الغريبة من دون زيادة او نقصان

انصت البروفيسور الى المرأة بكلّ اهتمام، وطلب منها ان تصحبه الى منزلها، وفي الطريق ، وهو يقود سيّارته، رجاها ان تبقي الامر سرّاً ، ولا تجاهر به حتّى يتأكد من سبب الحالة الشاذّة، ومعالجتها بأقصر وقت ممكن!!

وقد اضطر الى ان يكذب على تلك المرأة حين قال لها انّ هناك بعض الهياكل طرأت عليها سهواً بعض الاخطاء بسبب العجالة في انتاجها السريع قبل الحرب ، وهناك بحدود المائة هيكل لم تؤدِ عملها الحربيّ بسبب تلك الاخطاء ، وهو مستعدٌ لتدارك النقص والاعتذار من ايّ مواطن تحدث له متاعب بسبب سوء تصرف الهيكل الشخصي الذي يملكه ذلك المواطن في منزله

- نحن نفهم ذلك ايّها البروفيسور الكبير انّ ماقمت به من اختراع شيء عظيم لايقدر ايّ عالم ان يصل اليه. يكفيك فخراً انك كسرت حاجز العقدة بيننا وبين مومنتوس، ثمّ جعلتنا نكون

سادة كوكب دالمينوس بلا منازع، امّا الاخطاء الطفيفة فلا بدّ ان ترافق ايّ عمل وعبقريتك الفذّة كفيلة باصلاحها.

وما ان نطقت عبارتها حتّى توقّفت سيارة البروفيسور عند باب المنزل، ترجّلا، ثمّ دخلا الدار...

كان الهيكل هادئاً ...واقفاً مكانه السابق...

- هذا ما فعله... قالت المرأة عبارتها واشارت الى الفوضى، في حين التزم الهيكل السكون المطبق...

- لابأس، سوف نصلح الخطأ في غضون ساعات...

التقط الموجّه الصغير الموضوع فوق المنضدة وتمعّن فيه جيداً، ثمّ ضغط على زر التحكّم.... راح يصدر اوامره الى الهيكل، والآخر لايردّ عليه. استغرب البروفيسور ... وتحرّك من مكانه باتجاه الآلة.. وحين اقترب فجأةً ارتفعت يدٌ في الهواء وهوت سريعاً على خدّه. افقدته المفاجأة توازنه، فأفلت جهاز التحكّم من يده، وسقط على قفاه فوق الارض، فأنقض عليه الهيكل...

اطلقت المرأة صرخة مكتومة، وظلّت جامدة في مكانها، عندئذ تذكرّ البروفيسور جهاز التحكم فهتف بها:

- اضغطي على زر الفصل الالكتروني قبل ان يقضي عليّ....

وفي لحظات انتهى كلّ شيء... هدأ الهيكل، ونهض

البروفيسور، وكان جهاز التحكّم مايزال بيد المرأة التي راحت ترتعد من الخوف: - ساضطرّ الى ان أخلع الجهاز الالكتروني من الجمجمة مادام الاتصال مايزال مفصولا....

وانصرف ثانية باتجاه الهيكل، بعد ان تأكد اكثر من مرّة من فصل الاتصال. اقتلع الجهاز الالكترونيّ الصغير من جمجمة الهيكل...

- لا تخافي... هو الآن مجرّد هيكل عظمي لا يضر ولا ينفع... - "وعقب بعبارة رزينة":

- سأصحب الجهاز معي لأجري عليه تجاربي فأعرف سبب الخطأ، وأعدك بأنّ الامور سوف ترجع جميعها الى مجاريها...

ثمّ شدّ على يد المرأة وخرج...

ظلّ يفكرّ طول الطريق بالسرّ العجيب، والتصرّف الشاذ للهيكل.. من المعقول ان تخطيء المعامل عن غير عمد في ترتيب الاسلاك الالكترونيّة والشحنات أو برمجة جهاز التنفيذ، لكنْ لا يمكن ان تصل الى الحد الذي يتصرف فيه الهيكل تصرّفات ارادية مثلما يفعل الانسان الحيّ . لا يمكن ان يحدث ذلك اطلاقاً...فهو نفسه أشرف على التصميم وأملى البرنامج العام ثمّ فحص مع العلماء والمهندسين كلّ عقول الهياكل، فكيف يتسنّى لهيكل ما ان يحصل على معلومات اخرى؟

هذه الافكار شاغلته ونغّصت عليه انتصاره الكبير، بل أشاعت في نفسه القلق، وحين دخل غرفة المختبر ليفحص الجهاز بدقّة ... كاد يفقد صوابه من هول المفاجأة . شيء لم يتوقّعه، ولا يصدّقه

- ماذا يرى؟ وكيف حدث الامر ؟

ضرب المنضدة القريبة منه بقبضته، وتهاوى منهكاً على أقرب كرسي، كان يصرخ بمرارة:

- يا للفيروس القذر !!

ما عساه ان يقول اكثر من تلك العبارة ! وكيف يعلّل الامر؟ والسؤال الأهمّ من كلّ ما ينصرف اليه العقل: متى دخل هذا المرض الكومبيوتر الخاص بالهيكل العظمي ؟ سوف تقع حوادث وحوادث اذ لا يُعقل ان يكون هذا الجهاز الوحيد الذي تعرّض للفيروس...

وبغض النظر عمّا حصل كيف نعلل الامر ؟

نطق عبارته السابقة بصوت يائس، ودخل في تأمّلاته وشكوكه... هناك احتمالان لاثالث لهما امّا ان يكون الهيكل السابق تعرّض للمرض بسبب عاملٍ محليّ غير محدّد، وهذا احتمال بعيد، نادراً ما يحدث، واذا ما حدث فانّما يكون بشكلٍ ضيق ومحدود وليس بالصورة التي رآها عندما فحص الجهاز المريض قبل دقائق..

الاحتمال الثاني، وهو الاقوى، انّ الفيروس تمّ نشره من قبل احد العلماء في دولة مومنتوس او ايّ من الدول المتقدّمة والنشر تمّ عبر الاثير بدقّة متناهية حيث شمل جميع الاجهزة!!

ولابدّ للبروفيسور من ان يعترف بأن هناك عالماً آخر استطاع ان يخترق نقاط الضعف في صناعته، فينشر بها مرضاً ظهر بشكل تمرّد فردي. اليوم تمرّد هيكل، وغداً آخر، وهكذا... امّا اقصى افتراض، وهو مابثّ الرعب في نفسه اكثر هو ان يكون انتشار الفيروس بغرض احداث تمرّد جماعيّ في زمن موحّد حينئذ ستواجه المدينة بوقت واحد ما يقرب مليون هيكل طبيعي أو خمسة ملايين اذا كان الفيروس قد انتشر في الهياكل الصناعيّة ايضاً...

مع ذلك يمكن تعليل الظاهرة الشاذة ايّ الهيكل بعدّها خطأ طفيفاً يمكن ان يحدث في ايّ اختراع، وذلك هو أسوأ احتمال ينصرف اليه ذهنه منذ ان اكتشف الحالة الشاذة في بيت السيدة قبل ساعات

اذن تلك هي المأساة...

فعلى ضوء النتائج القادمة سوف تتعرّض سمعته - هو قبل غيره - الى الانهيار.. سوف ينسى الناس الانتصار الكبير ، ويتذكرون سلبيات الاختراع، وما جرّه عليهم من مشاكل فقط...

المشكلة لاتبدو سهلة اطلاقاً، اذا عرف الناس انّ هناك اكثر من

نصف مليون هيكل عظميّ تعمل في البيوت والمؤسسات الحكومية وليس يدري اذا ماكان الفيروس انتقل ايضاً الى الهياكل الاصطناعية..

احتمالات واحتمالات..

افكار تأتي واخرى تذهب

خيالات تغزو فكر البروفيسور الحائر...

كادت فكرة التمرّد الجماعيّ تحطمّ اعصابه . انّها اسوأ الفرضيّات قطعاً، فهل يسكت عن الخطأ بانتظار نتائج المستقبل؟ أم يخبر جلالة الملك ليصدر امراً بسحب كلّ الاجهزة وايقاف اعمالها في المجالات كلّها؟!

الفكرة سهلة من حيث الفرض النظريّ لكنّها مكلفة للدولة، بالاضافة الى ذلك فهي تقلل من شأن اختراعه...

لم يستقرّ على رأي محدّد ، وفضّل ان يناقش الامر الخطير صباح غد مع زميله البروفيسور كموران، ويطلب بعد ذلك من مجلس البحث العلمي عقد اجتماع طاريء لمناقشتة الوضع الجديد للهياكل...

كانت الساعة تعلن الثانية عشرة تماماً... غادر غرفة المختبر، وصعد السلّم الى غرفة النوم ...أخرج مباشرة من الدُرج الصغير المجاور لفراشه علبة حبوب مهدّأة ، وتناول قرصين منها

....ابتلعهما ، ثمّ تهاوى على الفراش....

ولم يمرّ وقت طويل حتّى كان يغطّ في نوم عميق....

- ٤ -

وقبل ان يصحو البروفيسور بدوان كانت المدينة تعيش حالة رعب قاتلة، ففي الساعة السابعة صباحاً، وقت ذهاب الموظفين والعمال والطلاب والنساء كلّ الى عمله... حدث التمرّد الهائل بشكل جماعي،وبوقت زمنيّ واحد...

الهياكل في البيوت هاجمت الناس وبدأت تحطيمهم باندفاعات مجنونة. كلّ هيكل يمسك بانسان ويظلّ يضغط علي رقبته حتى الموت . سائقو الحافلات الآليّون قادوا سيّارتهم المحملة بالعابرين نحو عمليات انتحارية .سائق الحافلة القادمة بأقصى سرعته يصطدم بالآخر . سائقو القطارات جعلوها تخرج عن السكك في اثناء سيرها ليلقى من فيها حتفهم... اما الهياكل التي القيت عليها مسؤولية تنظيف الشوارع فتركت اعمالها وبدأت تداهم المارة ، تخنقهم وتهشّم اجسادهم، وكانت الهياكل التي تشرف على الاجهزة الدقيقة تهاجم تلك الأدوات وتحطمّها بوحشيّة ...

الموت هبط في دولة لموردان مع ثورة الهياكل المحمومة بالضبط.

جثث هامدة في البيوت. جثث تناثرت في الخارج، الهياكل تزحف وتدمرّ . تقطع الاسلاك الكهربائيّة ، وتحطمّ اجهزة الرصد ، والهاتف، و كلّ ما تقع عليها اياديها...

فوضى ، و عبث...

أو موت و دم...

وفي بيت البروفيسور بدوان حدث شيء غريب . استيقظ و هو يحسّ بصداع ثقيل، فقرّر عدم مغادرة الفراش الى ان يستعيد عافيته، ويتأكد من فحص الجهاز ثانية .

ضغط على زر الاتصال، وطلب من الهيكل ان يحضر له فنجان قهوة، ثمّ اسند رأسه الى حافة السرير وبدأ يفكر من جديد

ولم يمرّ على طلبه اكثر من لحظات ، و هو الوقت نفسه الذي حدثت فيه ثورة الهياكل داخل البيوت و الشوارع، في ذلك الوقت،

اقتحم الهيكل غرفة البروفيسور، وانقضّ عليه...

كانت المفاجأة أسرع منه...

وكان التمرّد اكبر من قدرته على ايقافه..

ليس بإمكانه الفرار من غرفة النوم أو المقاومة.. أقصى ما يستطيع فعله ان يضغط على الجهاز الفاصل... وفعلاً نفّذ الامر،

لكنْ دون جدى .....

كان الفيروس قد استشرى فلم ينفع لوقف الزحف ايّ فصل...

تلك اللحظة ارتقى الهيكل صدر البروفيسور، وضع ركبتيه على اضلاعه، وبدأ يضغط باصابعه العشرة على رقبته... وحين همدت انفاس البروفيسور بدوان نهض الهيكل من الفراش.. وغادر الغرفة... ثمّ اغلق باب البيت خلفه، ونزل الى الشارع لينضمّ الى الهياكل الاخرى التي مازالت تهاجم البلد....

التجربة

رواية خيال علمّي

-١-

التجربة الجديدة تطلّبت مزيداً من الدقّة وكانت تتضمّن بعض الخطورة. وعلى الرغم من المغريات الكثيرة التي قدّمها مركز الابحاث العلمي في مدينة (لوبك) الالمانيه، فلم يتقدّم إلاّ شخصٌ واحد ويضع نفسه تحت خبرة الطبيب المعروف السيد (باول) .

كان ذلك الشخص شاباً عربياً لبنانيّ الجنسيّة يُدعى (عبد اللّه) هاجر من بلده لبنان بسبب الحرب ليعيش هناك في اوربا بأمان ويحصل على لقمة العيش .

أخيراً تمّ الاتفاق بين مركز الابحاث والسيد عبد اللّه وكان من ضمن الشروط أن يدفع المركز المذكور الى عائلة المتطوّع مبلغ خمسين الف دولار في حالة الوفاة، وهو مبلغ يكفي العائلة المتكوّنة من امّ وأختين ان تعيش عيشة محترمة، أماذا نجحت العمليّة وخرج منها (عبد اللّه) بكامل قواه العقليّة، فله الحقّ في التصرّف بالمبلغ المذكور كيفما يشاء .

هذا ماتمّ لاتفاق عليه يوم امس، وقد قبل السيد (عبد اللّه)

العرض برضا وقناعة تامة ،وممّا خفف من قلقه تأكيدات الطبيب الحاذق السيد (باول) الذي كان مصمّماً على النجاح في عمليّته الجديدة الفريدة من نوعها .

وبعد ان تمّت الاجراءات الرسميّة، رجع (عبد اللّه) الى غرفته ثمّ بدأ يكتب رسالة الى امّه .

تردّد قليلاً قبل الكتابة . انّه سيضطرّ الى ان يكذب عليها للمرّة الاولى في حياته . تذكرّ يوم ودّعها وهرب الى الخارج من الحرب. كانت تضمّه الى صدرها وهي تنشج . والى جانبها اختاه (سلوى وناهد تبكيان لوداعه.

كان مخيّراً بين امرين امّا ان يحمل سلاحه كبقيّة الشباب ويعيش حرب الشوارع ، تحت القصف الجوّيّ والمدفعي، وتكون روحه رهينة قنّاص لايرحم، كلّ ذلك ليكسب بضع ليرات يقدّمها لعائلته، او ان يهاجر بحثاً عن الامان والعمل، فاستقرّ رأيه على الحلّ الثاني ، وكانت آخر كلمة سمعها من امّه هي ان يقول لها الحقيقة، ويعتني بنفسه قبل كلّ شيء، وهاهو الآن حائرٌ في الكتابة. لقد أمضى ستة أشهر من دون ان يحصل على ايّ عمل، حتّى قَبِلَ العرض الأخير ، ومع ذلك قرّر ان يخفي الحقيقة حتّى لايزيد أهله ازعاجاً والماً فوق المعاناة التي يعيشونها كلّ يوم بسبب الحرب:

امّي العزيزة...

بعد تقبيل يديك الكريمتين

مرّت ستة أشهر كنت خلالها أبحث عن عمل، وفجأةً ابتسم لي الحظّ، فوقعت عقد عمل مع احدى الشركات، واظنّ انّه سيدرّ عليّ ربحاً كثيراً وسوف ابعث اليكم ماتحتاجونه.

كيف هي أخبار البلد والحرب ؟ وماذا عن أختي؟ ارجو ان لاتحول الظروف الصعبة دون وصول رسالتي اليك، وآمل ان يصل منك جواب قريب . مع تحياتي .

ولدك عبدالله

-٢-

كان كلّ شيء جاهزاًفي غرفة العمليّات . الحركة دائبة ومستمرّة. الممرضات يرتدين بدلاتهنّ البيضاوات، وأقنعة تغطيّ معظم وجوههنّ عدا العيون والجبهات . امّا المشارط الدقيقة فقد كدّست في قنانٍ معقّمة مليئة بسوائل كحوليّة، رُتبَت وفق مواصفات دقيقة حيث حملت كلّ قنينة رقماً خاصاً بها يميّزها عن سواها.

وكادت انارة الغرفة تقتصر على اللون الاحمر الذي كان ينبعث من مصابيح وضعت قُرب سرير المريض القريب من رفوف الاواني والمشارط الطبيّة.

وقف الطبيب المشهور (باول) عند رأس السيد (عبد اللّه) حيث لم يتمّ تخديره بعد . على كلّ حال لم يكن في غرفة العمليّات سوى ثلاثة ممرضات، وثلاث اشخاص من بينهم الطبيب (باول) وطبيب التخدير، ثمّ طبيب اتصال بين لجنة المركز العلميّة وغرفة العمليّات، وكان بين الممرضّات ممرضة طويلة شقراء تُدعى

(كارمن). كانت تنظر الى المريض باشفاق، وفي عينيها بعض الألفة والرحمة ، كأن نظراتها تلومه على فعلته . التقت عيونهما في آخر لحظة ، فارتجفت شفتاه، واتسعت ابتسامتها ففهم ان همستها تسأله :لااعرف لِمَ أقدمت على هذه المغامرة ؟ وكان يهمس مع نفسه : لم يكن بدٌّ من المغامرة ، فقد تركت امّا وأختين عليّ أن أساعدهما بالمال.

لحظاتٍ وغاب عبد اللّه عن الوعي تماماً ...بعدها كان الطبيب يعمل بحذق ومهارة...أخرج من أحد الأواني الزّجاجيّة مشرطاً وطلب من الممرضة القصيرة (انا) ان تمسك اناء أسفل رأس المريض، امّا كارمن فطلب منها ان تعتني بالاناء الذي وضعت فيه الفصوص العشرة الصغيرة وفق ترتيبها، في حين كانت الممرضة النحيفة البيضاء تراقب جهاز الضغط العالي، وكان الدكتور (شتاين) يراقب الامر باهتمام وبيده جهاز اتصال هوائي ينقل عبره الاحداث الى مركز الابحاث وكأنّه معلّق رياضي ينقل بحماس وصفاً دقيقاً لمباراة هامّة في كرة القدم .

توقّفت شاشات التلفزيونات في مركز الابحاث الرئيس عن استقبال الصور وبدأ الدكتور (شتاين) يعلّق،وهو يراقب باهتمام: ايّها الساده المتابعون في مركز الابحاث اكرر أسفي الشديد لأنني سأضطرّ الى نقل كلّ الاحداث اليكم بالصوت فقط . لأننا نخشى على الخلايا المحفوظة جيداً من حساسيّة الكاميرات، والاشعاعات

الضوئيّة التي تصدرها عدسات الكاميرات، وآلات التصوير الدقيقة . الآن بدأ الدكتور (باول) بفتح جمجمة المريض، وسيباشر عمله فورا لتستغرق العمليّة ستّ ساعات فقط.

رفع الدكتور (باول) يده نحو جبين عبد الله، وبدأ يقطع الجلد بهدوء، ثمّ وضع المشرط جانباً وعالج الرأس ففتح قحف الجمجمة، وفي اثناء ذلك كانت الممرضة النحيفة تجفّف بين برهة وأخرى العرق عن جبينه،لتبدأ العمليّة الكبرى التي تُعدّ أوّل عمليّة من نوعها في تاريخ البشريّة .

- ٣ -

كانت فكرة الدكتور (باول) طريفة للغاية وجديدة من نوعها، فهو بحكم خبرته الطويلة واختصاصه في جراحة المخ اهتدى ذات يوم الى اقتراح تحوّل الى تجربة عظيمة قبلها مركز الابحاث التابع لمدينة (لوبك) وقدم له الدعم المعنويّ والمادّي .

الفكرة تتلخصّ في خلايا المخّ القابلة على حفظ اللغة. ماذا لو تمّ زرع اكثر من خليّة برأس انسان؟ لقد تعرّض عدّة اشخاص من جنسيّات مختلفة الى حوادث مختلفة، منها حوادث سير، وقتل ووفيات طبيعيّة . هؤلاء الاشخاص قبل ان يموتوا اتفق الدكتور (باول) مع ذويهم على استئصال اعضائهم الجسديّة، فتجمعّت لديه عشرة خلايا احتفظ بها في أوعية كيّفها تحت درجة حرارة معينة، وعزلها عن جراثيم الهواء، وايّ احتكاك بالعالم الخارجيّ، حيث ظلّت حيّة طول تلك المدّة . وكانت الخلايا المذكورة، وفق الترتيب التالي :

١ - خليّة تحفظ اللغة الانكليزيّة ٢ - خليه للغة الالمانيّة ٣ -

الفرنسية ٤ - الاسبانيّة ٥ - الدنماركيّة ٦ - الروسيّة ٧ - اليونانيّة ٨ - الايطاليّة ٩ - الهولنديّة ١٠ - البرتغاليّة .

كانت معظم التجارب تُجرى على الحيوانات قبل ان يتمّ تطبيقها على الانسان، كالفئران والقطط، و الكلاب، لكنْ، كم يكون من المحال حقّاً اجراء عمليّة كالعمليّة السابقة على الحيوانات، وكانت فكرة البرفسور(باول) تتعلّق بزراعة تلك الفصوص داخل مخ بشريّ لمعرفة مدى استيعابه لتقبلّ تلك الخلايا، واكتشاف ان كان بامكان صاحب التجربة ان يتحدّث تلك اللغات،بطلاقة...

وحين تقدم البروفسور (باول) بعرضه الى مركز الابحاث، وناقشه مع الاطباء العلماء هناك، استمرّت المداولات اكثر من سنة حتّى تمّ مؤخراً الاعلان عن الحاجة الى متطوّع يقبل العرض. كان مبلغ التعويض كبيراً جدّاً، خمسين الف دولار لمن يقبل ، مع ذلك لم يتقدّم ايّ شخص الى المركز ويعلن عن موافقته ...

كاد البروفسور ييأس ، حتّى حضر صباح احد الايام شاب في الثلاثين من عمره اسمه عبد اللّه، لبناني الجنسيّة يتحدث لغة واحدة فقط هي لغته الام (العربية) اعلن عن قبوله اداء التجربة عليه، فكاد الطبيب البروفيسور يطير من الفرح، وخلال بضعة ايام تمّ توقيع العقد واتفق الطرفان على الشروط المطلوبة، ثمّ خضع عبد اللّه لاجراءات صحيّة، وتمّ فحصه في مركز الابحاث... وخلال مراجعته اليوميّة للمركز، ووجوده في المشفى عدّة ايام غاب عن

فكره، وهو مشغول بالمبلغ الكبير الذي حصل عليه، او نسي انّ الممرضة كارمن بدأت تبدي اعجابها به، ففسّر الامر بدافع الشفقة . ولم يكن فكره لينصرف حينذاك الى ايّ معنى يمكن ان يستلهمه من نظراتها اليه وابتسامتها الواسعة، فهو شاب على ابواب عمليّة كبيرة يمكن ان تنجح فيفتح مشروعاً في المانيا ويبعث ببعض المال شهريّاً الى امّه وأختيه، او ان يموت لترث العائلة المبلغ الكبير فتعيش عيشة جيدة هناك في بلده لبنان، بذلك يكون ضرب مثلاً للتضحية في سبيل عائلته الفقيرة .

كان هذا كلّ ما حدث... وكان أكثر الناس اهتماماً بمسألة زرع الخلايا العشر شخصان فقط هما عبد اللّه، وفي رأسه مشروع مالي يكفيه ويكفي عائلته العَوَز والفقر، والبروفسور (باول) الذي يشغل باله، الفوز بالجائزة الدولية الطبيّة . فيكسر رقم الفائزين بها، بعد هذه العمليّة للمرّة الخامسه .

- ٤ -

فتح عبد اللّه عينيه بعد ثلاثة ايام من العمليّة ليكتشف انّه يستطيع التكلّم بعشر لغات بالاضافة الى لغته الامّ العربيّة، ولم تستطع الممرّضة كارمن ان تخفي سرورها بنجاح العمليّة . كانت تذهب وتجيء في غرفته تتطلّع اليه والى طاقة الورد الجميلة المختلفة الالوان التي وضعتها على المنضدة الصغيرة قرب رأسه . تقدّمت بخفّة ورشاقة ، وبيدها انبوبة التغذية وبعض الادوية المقويّة . كان يحسّ بنظراتها الحنون نحوه ، على الرغم من بعض الآلام ، ولم يجد ايّ تفسير لتلك الظاهرة الغريبة التي حدثت سريعاً سوى الاعجاب به او العطف عليه من الممرّضة الالمانية الشقراء ، لذلك بادلها نظرات الاعجاب

قالت، وهي تبتسم ابتسامة واسعة : الحمد للّه على سلامتك .

- شكراً للطفك. اعتقد انّي نمت طويلاً .

- كنت تحت تأثير المخدر ثلاثة ايام .

- هل أخبرك الدكتور (باول) متى أغادر؟

بدأت تقيس ضغطه، ثمّ دسّت احدى الحبوب في فمه، وسقته جرعة ماء من كأس صغير:

- ليس قبل ان تطّلع على البرنامج .

كان البرنامج يتمثّل - بعد نجاح العمليّة - في وضع (عبد اللّه) تحت المراقبة الصحّية لمدّة ستة أشهر، سواء اكان في المشفى أم غادرها الى بيته. واقرّت لجنة الطبّ العليا في المشفى تزويده بجهاز لاسلكي يمكنّه من الاتصال فوراً بالممرضة والدكتور (باول) عند أوّل طاريء او تعب يواجهه، كلّفت الأنسة كارمن بمرافقة (عبد اللّه) معظم الايّام خلال فترة النقاهة والمراقبة الطبيّة، وكان من ضمن البرنامج ايضاً حضور مؤتمر طبيّ خاص بالاطباء، ثمّ مؤتمر صحفي يحضره صحفيون من مختلف انحاء العالم.

أعجب كبار الاطباء أثناء الاجتماع بالدكتور (باول) وكان (عبد اللّه) يستمع اليهم، فعرف من خلال المناقشات انّ فيهم بعض الاطباء غير الالمان . لم يكن بحاجة الى ان يضع سمّاعة الترجمة قرب اذنيه كما يفعل بعض الأطباء الأجانب الذين حضروا الاجتماع . امتدحوا خبرة الطبيب (باول) وحنكته في أداء العمليّة، ثمّ أثنوا على (عبد اللّه) اذ قبل التطوع لتجربة كهذه تعدّ أوّل تجربة من نوعها في العالم.

امّا المؤتمر الصحّفي فكان اكثر حيويّة من مؤتمر الاطبّاء لأنّ

الحديث تمّ عن أشياء عامّة يعرفها عبد اللّه جيداً كان الصحفيون بعيدين عن استخدام ايّ مصطلح طبيّ، ولايهمهم سير العملية، بقدر مايرون فيها عنصراً غريباً يقبل الجدّة والمفاجأة . ومن بين الصحفيين مرّ المتطوّع بعض الاصوات العربيّة .

سأل صحفي انكليزي : نحن نشكرك يا سيد عبد اللّه على تطوّعك للقيام بالتجربة، فهل تنوي ان تتطوّع لتجارب اخرى؟

- لاشك انّهاخدمة علميّة انا فخور بها ، كما انّي مستعدٌ لتقديم ايّ جهد في سبيل البشرية .

صحفي فرنسيّ يسأل: ما هي ابعاد التجربة النفسيه على المريض

هنا تدخلت الممرضة لتجيب : لاتغيير في العواطف اطلاقاً فالبروفسور (باول) لم يزرع خلايا مخيّة عامة، بل زرع خلايا مخيّة خاصّة بحفظ اللغة؟ وسأل صحفي امريكي : ماذا عن الموقف السياسي وصداه في العمليّة ؟

أجاب المتطوّع : انّ ايّة تجربة بيننا والغرب تقرّبنا خطوة جديدة نحو التفاهم ، وتجعل العرب في موضع افضل وسمعة حسنة .

كان عبد اللّه في تلك اللحظة - لحظة اللقاء - يستفيد من خبراته اللغويّة التي زُرعت في جسده مؤخراً ، فيحسّ بالقدرة على الكلام والاجابة السهلة مهما كانت صعوبة الاسئلة...فجأة ومن دون سابق انذار ظهر من بين الاصوات صوت عربيّ ، لمراسل

صحيفة عربيّة، سأل بفضول:

- سيد عبد اللّه، هل لك ان تخبرنا كم تقاضيت من أجور على التجربة؟

ارتبك ، على الرغم من قدارته اللغوية الاحدى عشرة، وتطلّع في وجه الممرضة كارمن كأنّه يلوذ بها ، وجدها ذاهلة مرتبكة تبحث عن ايّ جواب تردّ به على الصحفي،لكنّها أخيراً استدركت الموقف:

- اعتقد ايّها السّادة ان السيد (عبد اللّه) تعب قليلاً من الاجوبة. لندعه الآن يسترح قليلاً ، وانا أعدكم بلقاء مطوّل معه في القريب العاجل لتسألوه عن كل الامور... الملتبسة عليكم.

كانت هذه العبارة كافية ليشيع جوّ من الصمت في قاعة المقابلات العامّة داخل المشفى... ثمّ خرج الصحفيون واحداً بعد الآخر حيث خلت القاعة بعد لحظات من كلّ الحضور .

هناك في غرفته تهادى على اقرب مقعد . كان حزيناً نوعاً ما لأن السؤال استفزّه في الصميم، طوّق جبهته براحة يده وبدأ يفكرّ . لِمَ سأل الصحفي العربي مثل هذا السؤال الوقح ؟ لحظات وكانت الممرضة تضع يدها برفق على كتفه، وتحاول ان تواسيه، فالسؤال الأخير اثارحزنه وهو لايعرف كيف يهرب منه، المهمّ ان يهرب منه بأيّة وسيلة كانت .

- ٥ -

في الصباح زارت الممرضة كارمن عبد الله شأنها كلّ مرّة، وتابعت نبضه وقياس ضغطه، استفسرت منه عن صحّته، ووعدته ان تمرّ به عصراً الساعة الخامسة ليذهبا معاً الى أحد المطاعم حيث يتناولان طعام العشاء هناك ، وهي اوّل نزهة له بعد العمليّة العجيبة التي اجراها الدكتور (بول) .

قرر عبد الله ان يقضي الوقت بالاطلاع على نسخة من ملفّات القضيّة التي أصبح طرفاً فيها . كانت ادارة المشفى اهدته جهاز كمبيوتر فيه معلومات عن الضحايا الذين استفاد منهم وأصبح بفضلهم يجيد الحديث بعشر لغات . هؤلاء الاشخاص المجهولون يحتفظ في دماغة باجزاء منهم، فلا يعقل - كما حدث نفسه - ان يبقى يجهل شيئاً ما ، ولو بسيطاً، عن حياتهم .

جلس خلف الكومبيوتر وضغط على زر التشغيل ثمّ أخذ يستعرض الاسماء . ظهرت أوّل صورة واضحة، هي صورة شاب وسيم، نحيف القامة ذو ملامح شرقيّة . اسفل الصورة كتب بخط

عريض : خوان البرتو..من أسبانيا. العمر عشرون عاماً. سبب الوفاة حادث سيّارة .

ضغط على الزر ثانية، فظهرت صورة شاب في الخامسة والعشرين . "جون ولسن" انكليزي الجنسيّة . وسيم ذو ملامح جادة ، عينان ثاقبتان فيهما شيء من الرزانة ....السبب عطلٌ في الكليتين .

كان يشعر بالاسف لاؤلئك المؤتى . الطبيب نفسه أخبره انّ الضحايا كانوا يفضّلون ان يطلّع الشخص الذي سيحمل اعضاءهم على مقتطفات من حياتهم الشخصيّة ، ومع شعوره بالاسف فكرّ ان يزور ذويهم ، ثمّ أعرض عن الفكرة تماماً . ستكلّفه المحاولة كثيراً من الجهد والوقت والمال . هكذا عاد ثانية الى الكومبيوتر، بعد ان ارتاح قليلاً، وتناول طعام الغداء، الى ان وصل في استعراضه الى الرقم العاشر والأخير ....

فجأة ... لفتت نظره الصورة ... شاب ممتلىء الوجه، ازرق العينين، ذهبي الشعر، في التاسعة عشر من عمره، والذي لفت نظر عبد الله هو التشابه الكبير بين صورة الضحيّة الظاهرة على الشاشة ووجه الممرضة الطيبة كارمن . تكاد الصورتان تتطابقان تماماً . انّه الماني مثلها، اسمه فان لودفينغ، سبب الوفاة اصطدام بشاحنة ، وهو يركب الدراجة النارية، هكذا يقول الكومبيوتر . الشاب الماني مثل كارمن، ليس من المستبعد ان يكون أحد أقاربها . ويستمرّ

الكومبيوتر في اعطاء المعلومات عن الشاب (فان) : كان يركب درّاجته حين صدمته شاحنة كبيرة ، بقي يقاوم الموت ثلاثة ايّام ، واثر وفاته تبرّع أهله وفقاً لرغبته بكليتيه، وبعض من اعضائه من ضمنها خليّة مخيّة.

كلّ تلك المعلومات وجدها (عبد اللّه) عن (فان) في الكومبيوتر . بقي فكره مشغولاً بالضحيّة الى ان حضرت الممرضة كارمن . كان لمّا يزل منشغلاً بهواجسه حين دخلت . قال وهو يتطلّع بوجهها، وقد بدا الشبه له كبيراًفي تلك اللحظة :

- كأنّي ، حين غادرتني وبقيت وحيداً، اكتشفت شيئاً ما في الكومبيوتر .

تطلّعت اليه بعينين ذكيتين، وقالت :

- ربّما لا تعرف كلّ شيء، لأنّي انتظرت الفرصة المناسبة لاشرح لك التفاصيل .

غادرا البيت، وانطلقا عبر شارع مدينة (لوبك) الرئيسي الى أحد المطاعم الهادئة . استراح عبد اللّه لجوّ المكان، والمصابيح الخافتة ، واسترخت أعصابه للموسيقى الهادئة .عندما جلست على الكرسي المقابل، طلبت شراباً، ثمّ بدأت تشرح له القصّة :

كان (فان) الذي ظهر على شاشة الكومبيوتر أخاها، نعم، هو اخوها الوحيد،الشاب المغرم بركوب الدرّاجات الناريّة ، وهي

نفسها اشترت له آخر دراجة، لكنّ القدر حكم ولابدّ من الخضوع لحكمه والقبول به، كم كان بودّها ان ترى شخصاً يحمل في جسده بعضاً من بقايا الاخ العزيز. انتظرت ذلك طويلاً حتّى اعلن (عبد اللّه) عن نفسه، فحمل في رأسه الجميل خليّة من خلايا (فان) .

ازداد فضول عبد اللّه، فسألها: الم يأت مريض بحاجة الى الكليتين؟ أجابت بفخر : هما في جسد الماني، غير أنيّ لا اعير الكليتين ايّ اهتمام . خلية اللغة أهمّ من كلّ شيء . انت لم تكن من قبل تعرف الالمانيّة أما الآن فأنا فخورة بك وبأخي لأنيّ استطيع ان أتحدّث معك فتتكلم اللغة الالمانيّة بطلاقة .

في تلك اللحظة، أصيب عبد اللّه بخيبة أمل، الاهتمام الفائض عن الحد، والنظرات الجميلة، كانت كلّها لسبب ما ... ظنّه الحبّ والاعجاب أوّل مرّة، وأقصى ما فكّرفيه انّ كارمن فتاة ذات قلب طيب، أعجبتها شجاعته، وشخصّيته أو شكله، امّا الآن فها هو يكتشف سبباً آخر، ربّما يدفعه ذلك السبب الى التعاطف معها، او ان يشعر تجاهها شعوراً أخويّاًلا أقلّ ولا اكثر .

كان يلوك اللقمة، وهو شارد مع افكاره، يفكّر بكارمن... كارمن التي يحمل خليّة أخيها في رأسه، لو لم يكن الامر بهذه الصّورة فهل تهتمّ به اكثر؟ انتشله صوتها الرقيق من افكاره:

- ٦ -

صباح اليوم التالي استيقظ (عبد اللّه) من نومه متأخّراًعلى غير عادته، وهو يشعر بصداع حاد . كانت الساعة تشير الى العاشرة تقريباً ، وعندما نهض من سريره واتجه الى المطبخ ليكرع كأس ماء مع حبّة أسبرين، سمع في اثناء عبوره الصالون ، صوتاً خفيفاً قرب الباب، فعرف مصدره للتوّ . انّه ساعي البريد الذي القى اليه من فتحة الباب المخصّصة للرسائل رسالة قادمة من لبنان.

رسالة من امّه . كانت فرحته عظيمة بها ، ستحمل بلا شك أخبار الأهل والاصدقاء . لقد أنسته الرسالة الصّداع الحادّ الذي مازال يعاني منه ... فضّ الرسالة بيد مرتعشه، وحاول القراءة...

فجأة اكتشف امراً غريباً لايستطيع التكهّن به، بل لايعرف مصدره على الاطلاق... عيناه تتابعان السطور بدهشة واستغراب، وها هو يتطلّع في الرسالة القادمة من لبنان ، فلا يفهم أكثر كلماتها. لا يستطيع ان يقرأها بصورة صحيحة، ليس الخط رديئاً، لكنّه لايقدر على قراءة الكلمات . يكاد ينسى تماماً تلك الاسطر،

وطريقة القراءة . تبيّن فقط عبارة : ولدي الحبيب... ثمّ عجز تماماً عن فهم الاسطر الباقية .

وقف يتأمّل لحظات ، اذ عجز عن معرفة السرّ، فهرع الى جهاز اللاسلكي، وضغط على الزرّ . كان الدكتور (باول) على الطرف الآخر :

- نعم هل من شيء ؟

- حالة غريبة دكتور . انيّ أعاني من صداع ، في الوقت نفسه وصلت الي رسالة من لبنان عجزت عن قراءة معظم كلماتها، حتّى اكتشفت بأنيّ اكاد انسى معظم اللغة العربيّة

- لابأس لا تخفْ

بدا الاضطراب واضحاً، في عبارة الدكتور (باول) وهو ينصت الى كلمات مريضه الذي تابع:

هل تفهمني دكتور ؟

- نعم أفهمك جيداً . انّك تتكلّم الالمانيّة كأيّ المانيّ .

بعد دقائق كان (عبد اللّه) في المشفى يخضع لفحوصات طبيّة دقيقة . يدخل جهازاً ، ويخرج من آخر، سلّطت عليه اشعاعات مختلفة، ووضعت قربه اجهزة خاصّة، وتعرّض جسده كلّه لفحص دقيق، ثمّ خرج الى المكتب الرئيسي،لأن البروفسور (باول) طلب

ان يتحدّث اليه في مكتبه على انفراد .

جلس البروفسور امام المنضدة الواسعة، يتأمل بقلق في وجه (عبد اللّه) . لم تكن نظراته لتدلّ على القلق بقدر ما كانت تنضحان جدّيّة وحزناً . أخيراً بدأ يتكلّم بنغمة هادئة :

- الحالة لاتدعو الى القلق . اعدك انّ الصّداع الحادّ في طريقه الى الزوال .

- استطيع ان اطمئنّ اذن ؟

- نعم تستطيع ان تطمئن .

ثمّ غيرّ البوفسور لهجته، ظهر تردّده في البدء ،واستجمع شجاعته خلال لحظات :

- من عادتي الصراحة مع مرضاي، لذلك لابدّ من قول الحقيقة، ومع ذلك اكرّر تأكيدي لك بأنّ الصدّاع شيء عابر يمكن ان يصيب ايّ انسان من دون عمليّة لكن ...

اندفع عبد اللّه متسرّعاً :

- اذا كانت الحال غير خطرة، والصداع عابر ، فلم لااستطيع قراءة الرسالة ؟ اعتدل البروفسور في جلسته وعقّب :

- تلك هي المسألة التي اودّ ان اتحدث معك بصددها .. انت الآن تتكلّم عشر لغات ، نقصان واحدة لايهمّ على الاطلاق .

- انيّ لم أفهم ايّ شيء .

اندفع البروفسور بعد التمهيد السابق بصورة مباشرة :

- هناك حقيقة ظهرت ، ويصعب علينا تجاوزها بعد العمليّة . لم نكن نحسب حساب الخلايا العشر . كانت جديدة وحيويّة زرعت باتقان، غير انهّا توسّعت على حساب الخليّة الاصليّة ، الخليّة التي تختزن معرفتك باللغة العربيّة، فضمرت وهي الآن آخذة بالضمور، لاينفع معها ايّ علاج . منذ ثلاثة ايام بدأت لغتك العربيّة تضعف، ولانّك لم تتكلّم العربيّة مع أحد فاتك ان تكتشف الامر، حتّى وصلت اليك الرسالة اليوم، فعجزت عن قراءتها...

- يعني هذا انّي نسيت لغتي الاصليّة .

- ليس تماماً، ولكي اكون صريحاً معك ،فأنا واقعي مع مرضاي، اقول انّك تتذكرّ اليوم بعض الكلمات، وستنساها غداً .

سأل عبد اللّه برجاء :

- هل من أمل في ان استعيد لغتي الاصليّة ذات يوم .

- لا استطيع ان أجزم .

حينئذ فقد (عبد اللّه) السيطرة على اعصابه . ضرب المنضدة، بقبضة يده . زعق كالمجنون ، وحاول ان يحطّم كلّ شيء تقع يده عليه . رمى المصباح الكهربائيّ على الارض، وقلب المنضدة .

قذف بمزهريّة الورد على غير هدى فتهشمت المرآة الجميلة التي تزيّن الحائط . اضطرّ الدكتور (باول) الى طلب النجدة ، فحضرت (كارمن) مع ممرضين مسكا (عبد اللّه) بقوّة ثمّ حقنته دواءً مهدّئا ، وسرعان ماسكن كالطفل الوديع، ثمّ أسبل جفنيه وراح يغطّ بنوم عميق ، عندئذ وجّه البروفسور كلامه الى (كارمن) :

- الآن هو في مرحلة امتصاص الصدمة . سيكون الامر مألوفاً اليه بعد حين ، وسيخضع للامر الواقع . من الافضل نقله الى احدى غرف المشفى ، فهو في هذه الساعات يمرّ بمرحلة امتصاص الصدمة، وسيخضع للامر الواقع بعد عدّة أيّام .

- ٧ -

كانت تلك الغلطة الوحيدة التي سُجّلت على تجربة الدكتور (باول) . انّه لم يفكرّ وهو يزرع الخلايا العشر بالخليّة الاصليّة حيث توسّعت كلّ تلك الخلايا على حسابها، فضمرت وتآكلت الى حدّ الانعدام الكلّيّ .

حين صحا (عبد اللّه) أبصر الممرضة جالسة على الكرسيّ قريباً منه :

- لاتخف ليس هناك من خطر .

قالت عبارتها تلك، وقدّمت اليه ملعقة الدواء .

القى نظرة على الشبّاك فلمح مصابيح الشارع مضاءة . يبدو أنّه نام عدّة ساعات، ثمّ نقل بصره من النافذة الى ساعة الحائط الالكترونيّة ، فوجدها تشير الى منتصف الليل .

بلع الدواء السائل، فأحسّ بمرارة تلذع لسانه، فعلّق بيأس :

- اكاد لا أصدّق هذا .

اجابت الممرضة كارمن:

- لا تخف انّك تتكلّم عشر لغات . سأكون بجانبك ...

قاطعها بحيرة :

- وماذا عن أهلي ؟ ذلك يعني أنيّ لا أقدر على زيارتهم في بيروت حتّى لو انتهت الحرب .

قالت، وهي تمطّ شفتيها،:

- اتظن انّ الحرب ستنتهي ؟

فرفع صوته محتّداً :

- لنفرض انّ الحرب انتهت؟

صمتت الممرضة برهة، وضعت الدواء على الرفّ، وعادت الى جلستها، ثمّ مررت أناملها الرقيقة على كفّه :

- لدي اقتراح هل توافق عليه ؟

حاول ان يتشبّث بأقوالها لعلّها تساعده في ايجاد مخرج له من هذه الورطة التي اوقع نفسه فيها ، فقال وهو مايزال محتّداً :

- هل تتكلّم أختاك لغة غير العربيّة ؟

قال بحسرة:

- نعم درستا في المدرسة اللغة الفرنسيّة .

- ووالدتك؟

- العربيّة فقط (وخجل من ان يقول انّ امّه اميّة لا تعرف القراءة والكتابة).

- اقتراحي ياعزيزي كالآتي : انّك رجل غنيّ، لديك مبلغ ضخم من المال في البنك ، ذلك يعني انّ لك الحقّ في ان تطلب عائلتك، ستأتي امك واختاك الى هنا. تستطيع الحديث معهما بالفرنسيّة ، وسيكون حديثك معهنّ بالفرنسية او الالمانية حين يتعلمنها.

لم يكن ذلك يهمّه لأنّ ذهنه كان مشغولاً بالصدمة التي ستصيب امّه واختيه . لقد كذب على الثلاثة حين ادّعى حصوله على عمل ، فماذا سيكون عليه موقفه بعد ان تعرف والدته الحقيقة؟

بدأ الغضب يساوره، غير انّ حدّة الموجة كانت أخفّ من المرّة السابقة. بدأ يمتصّ الصدمة تدريجياً كما قال الدكتور (باول) . ابصرت الممرضة (كارمن) علامات الغضب بادية على وجهه وعينيه، فأسرعت الى الدواء المهديء. ناولته حبة، جرعها مع كأس الماء، فعاد اليه هدؤه بعد دقائق . كان جسده يشعر بالراحة والامان، فسأل الممرضة كأنّه مقتنع بأقوالها :

- ماذا أفعل الآن كيف اكتب لهن الرسائل؟

ربتت كارمن الرقيقة على خدّه بلطف وأجابت :

– لا تتصنع الغباء ياعزيزي، اكتب رسالتك بالالمانية او أيّة لغة تشاء وسيقوم جهاز (الكومبيوتر) بترجمتها الى اللغة العربيّة، اليس هذا معقولاً أم لا ؟

هزّ رأسه مقتنعاً، وفي اللحظة نفسها طلب ورقة وقلماً، وبدأ يكتب الى امّه رسالة... كتب حتّى شعر بالتعب ، فوضع القلم جانباً واسترخى على سريره ، ثمّ داعب النوم عينيه

- ٨ -

لم يكن (عبد اللّه) عقب الحادث الأخير بحاجة الى ايّ دواء ما عدا المهديء الذي وضعه له الدكتور (باول) ، ونصحه بأن لايتناوله كثيراً الا حين يشعر بالقلق أو الغضب لفقدانه لغته الام .

وشيئاً فشيئاً بدأ يقرّ بالامر الواقع . استسلم تماماً ، وأصابته لحظتها موجه حزن، فالتهم حبّة فعاد الى هدوئه، في هذا البيت اي بعد خروجه من المشفى بشهرين تقريبا، وصلت اليه رسالة من امه.

حسب ترجمة الكومبيوتر ، قرأ النصّ التالي :

ولدي الحبيب

الحمد للّه الذي ساعدنا على استلام رسالتك على الرغم من الظروف الصعبة التي يمرّ بها البلد ، كانت أختك الكبرى (سلوى) تقرأ الرسالة ، والفرحة تغمرنا جميعاً حتّى كدنا من فرحنا بسماع أخبارك الجيدة ان ننسى الخوف الذي يثيره القصف المدفعي والصاروخي في الخارج .

امّا عن سؤالك ولدي الحبيب حول سفرنا اليك، فاعتقد . وتشاركني اختاك في الرأي . أن نظلّ هنا في بيروت على أمل ان تنتهي الحرب فتتمكن انت من زيارتنا، ولا اعتقد انّ عملك في الخارج يمنعك، اذا تحسّنت الاحوال، من زيارة لبنان في السنة مرّتين او مرّة على الاقل.

لقد اعتدت على العيش هنا، كما اعتادت اختاك، ونحن نشكرك من صميم قلوبنا على اهتمامك بنا، ودعوتك لنا لزيارة المانيا والعيش معك هناك، لكنّي على الرغم من كلّ شيء، لااظنّ أنيّ سأستطيع ان اتكيّف بعد كلّ هذا العمر للعيش في بلاد الغربة. انت شاب قويّ وذكي تستطيع ان تدبّر حالك، فتتعلّم لغة اهل البلاد وتختلط بهم امّا انا فيصعب عليّ الامر كثيراً .

ولدي الحبيب: ادعو اللّه تعالى ان يوفقك في مشاريعك واعمالك دائماً قبلاتي وقبلات اختيك لك والسلام .

كانت تلك هي الرسالة الثانية التي بعثتها ام (عبد اللّه) من لبنان الى ولدها، والحقيقة انّ الرسالة جعلته قلقاً، وان كان قد ازدرد حبّة من الدواء المهدّيء. ليفرض انّ الحرب انتهت، والدته تصرّ على البقاء في بيروت، فكيف يستطيع زيارتها ؟ على ايّة حال حضورها الى هنا أفضل، فهنا في المانيا يمكن ان يقنعها لتقبل الامر الواقع بمساعدة (كارمن) والدكتور (باول) بالاضافة الى انّ المانيا بلد متطوّر يستطيع فيه ان يستخدم الكومبيوتر او ايّ جهاز للترجمة

الفوريّة لكي يتفاهم مع امّه . عليها ان تعرف قبل كلّ شيء ان! ما قام به من عمل هو لمصلحتها ومصلحة اختيه، فهو بعمله الخطر أراد ان يجعلهن يعشن حياة جيدة ، فخاطر بمستقبله، المهمّ ، بعد كلّ هذا ، والدته ترفض المجيء الى المانيا، وهو لا يستطيع الحديث باللغة العربيّة، فبأي عذر يواجه أمه وحده، ومن دون اتصال لغوي، اذا زارها في بيروت؟ المهمّ انّها ستعرف الحقيقة في النهاية سواء جاءت الى المانيا ام اضطرّ هو للسفر الى بيروت بعد ان تنتهي الحرب...

للمرّة الاولى يصبح عبد اللّه فرديّ التفكير . ربّما خجل من نفسه وهو يتخيّل هواجسه الداخليّة ، فيوغل فيها بصراحة مكشوفة. من أعماقه تمنّى الا تنتهي الحرب، نعم تلك الحرب التي كرهها من أعماق قلبه، كانت بنظره غولاً من الحديد افترس عمّه، وبعض اصدقاء المدرسة، وابتلع عدداً كبيراً من الاهل، والجيران، ولم يكتف بذلك بل أشعل ذلك الغول الحرائق في كلّ لبنان، للأسف الشديد عبد اللّه يودّ من كلّ أعماقه ان يعيش الغول الى مالا نهاية، لأنّه أصبح يخشى من مواجهة الحقيقة، ماذا يقول الناس عنه اذا سافر الى لبنان ... (عبد اللّه) الشاب الكبير نسي لغته، لو كان طفلاً لقبل المجتمع عذره، وبغضّ النظر عن المجتمع كيف يواجه امّه، لا حلّ سوى ان تستمّر الحرب، فتسقط القذائف المدفعيّة على الاهالي كلّ يوم .. يظلّ التيار الكهربائي مقطوعاً طول الليالي

فيعيش الناس في ظلام دامس ولامجال أمامهم الا الاعتماد على ضوء القمر ، أو المصابيح النفطية، والشموع، وفي النهار، حين يحاول ايّ فرد ان يخرج الى الشارع ليتبضع خبزاً وبعض الطعام، فقد لا يعود إذ قد تصيبه شظية أو رصاصة قناص ..(عبد اللّه) يود أن تستمرالحياة التي كانت سبباً في هروبه من لبنان الى أمد طويل، والسبب هو نسيانه للغته الام... وها هي طائرة، او قذيفة تحوم فوق رأسه ، يحاول الهرب منها الى اقرب خندق ، أو حفرة وليس أمامه إلاّ صحراء ومساحة مكشوفة من الارض...ساوره خوف وصرخ لا..لا بدّ ان أعيش.. لابدّ ان أعيش...ومع صراخه اضطجع على الارض ضامّاً رأسه بيديه، وانتظر لحظات حدث انفجار قويّ بالقرب منه، ثمّ عاد الهدوء مباشرة...

حين نهض، كانت ملابسه ملطّخة بالطين والتراب، وبجانبه ارغفة الخبز معجونة بالوحل...الحمد للّه أني نجوت بأعجوبة،القذيفة سقطت على بعد امتار منّي، وعليّ الا أثق بالهدوء النسبي، سيعود القصف ثانية ، ولا مجال امامي الا ان أهرول مسرعاً الى البيت .

وصل الى البيت، فضمّته امّه الى صدرها . كان حزيناً جداً على ضياع الخبز ، والخضار . قال بأسف :

– حدث القصف اثناء عبوري الساحة العامة من الغرب الى البيت، فلم أجد بدّاً من رمي نفسي على الارض .

قالت الام وهي تقبّله وتضمّه الى صدرها:

– الحمد للّه على سلامتك يا ابني نستطيع ان نصبر على الطعام....

كان عبد اللّه يتذكر كيف قضت العائلة ليلتها وسط الظلام من دون عشاء ، غير انّ الثلاث كنّ فرحات بسلامته، حتى ليخيل اليه انّ القذيفة تكرّ فوق رأسه من جديد، فيصرخ، ويكاد يلقي بنفسه الى الارض...فلا يرى ايّ أثر، للحلم المزعج ، ولايسمع ايّ صوت سوى ازيز الكومبيوتر الرابض امامه، فيحمد اللّه على سلامته، و يعود يكره الحرب من جديد بعد ان مرّ بخاطره شريط الذكريات، المرّة، فيتمتم مع نفسه وعيناه ما تزالان على شاشة الكومبيوتر :

– لابدّ ان تنتهي الحرب، وسأواجه اميّ والمجتمع بالحقيقة يوما ما ...

- ٩ -

وسط خضّم الافكار المضطربة التي داهمت عبد اللّه كلّ يوم وصله نداء من الدكتور (باول) ، يطلب منه بلطف الحضور الى مكتبه في المشفى ، فعرف من خلال لهجة الودّ والتأكيدات المتتاليه انّ الامر غير خطير، وعلى الجانب الآخر من الخطّ اكدت له الممرضة انّ الامر بسيط للغاية، وهو في صالحه أيضاً.

- ياعبد اللّه اتعرف لم استدعيتك؟

بقي عبد اللّه صامتاً بانتظار الجواب ، ثمّ واصل الدكتور حديثه

- انّه أمرٌ لمصلحتك، سيسرك كثيراً .

لا شيء يسرّ عبد اللّه بعد ان فقد لغته الام غير ان تتوقّف الحرب الاهليّة في بلده، فما هي الاخبار السارّة التي استدعاه الدكتور (باول) ، من أجلها .

- انا آسف إذ لا تبتسم، عرفتك شاباً شجاعاً لا تبالي بالمخاطر.

أعتدل عبد اللّه بجلسته وأجاب باقتضاب:

- انا آسف اذا استقبلتك بهذا الوجه . لا أستطيع ان أخفي مشاعري كما يفعل لاعبو القمار الذين من الصعوبة ان تكتشف وجوههم.

- يسرّني ان أسمع ذلك منك ياعبد اللّه ، انت صريح ، وانا كذلك لذلك أحببت أن أتحدّث معك.

- انا على استعداد لأن أصغي اليك .

- حسناً اذن ...

صمت الطبيب قليلاً ، وواصل:

- بعد ان مرّ كلّ الوقت السابق، استطعت ان أتأكدّ من ان الخلايا الجديدة المزروعة في رأسك تستطيع ان تستقبل كأية خلية لغة جديدة. انّ معظم الخلايا المزروعة في رأسك تعود لشبان لم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من العمر...

قاطع عبد اللّه بضيق:

- تعني أنّي اتطوّع لزراعة خليّة أخرى ، همّ ان يقفز من على كرسيّه، وصرخ محتدّاً :

- مستحيل ، مستحيل..

- لا لم اقصد هذا ، استمع اليّ فقط...

عاد عبد اللّه الى هدوءه ثانية ، في حين واصل الطبيب:

- أقصد من كلامي السابق، انّك الآن تحمل في رأسك عشر خلايا لحفظ اللغة، ذلك يساعدك على دراسة اللغة العربيّة لغتك الام...

تغيّرت ملامح عبد الله ، وعلت ابتسامة واسعة شفتيه، فقاطع للمرّة الثانية:

- كيف لم تخبرني ذلك من قبل؟

- اردت ان أتأكدّ فقط ، فالطبيب لا يتسرّع في الاعلان عن حكمه لكنّي اطلب منك شيئاً واحداً فقط.

- انّي على استعداد لتلبية طلبك.

- ليبق خبر نسيانك العربيّة سرّاً بيننا، وأرجو ان ترفض كلّ مقابلة صحفيّة، فقد انتشر خبر نجاح العمليّة في المحافل الطبيّة، وضمور الخليّة الاصلية أمام زخم الخلايا الفتية الجديدة، معناه أنه يوجد نقص في العملية، وأنا الآن أوشك على حيازة الشهادة الدولية للمرة الخامسة.

فهم عبد الله القصد من الدعوة. لم يكن يهمه ايّ شيء اطلاقاً ماعدا لغته الاصليّة . أبدى سروره من المقابلة الاخيرة، ووعد الدكتور بالكتمان...ثمّ غادر المشفى الى بيته، وعلامات السرور والرضا تعلو قسمات وجهه...

وكان عصر اليوم نفسه يسير مع كارمن في أحد شوارع مدينة

(لوبك) حيث انعطفا من الشارع الرئيسي الى أحد الشوارع الفرعيّة، توقفا عند عنوان معلّق على واجهة بناية: (معهد لوبك لتعليم اللغة العربيّة) صعدا الى الطابق الثاني من البناية ، وكان يقابل بعد لحظات موظّفة الاستعلامات، ليسجّل اسمه في المعهد، ويبدأ بدراسة اللغة العربيّة - لغته الامّ - من جديد.

Myrens fortsellinger.
Forlaget Myren 1987

المحتوى

النفق ٥

الموتى يزحفون ٤٥

التجربة ٨١